Ballack

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورة النافاراى

16

WWW.LILAS.COM

Ballack

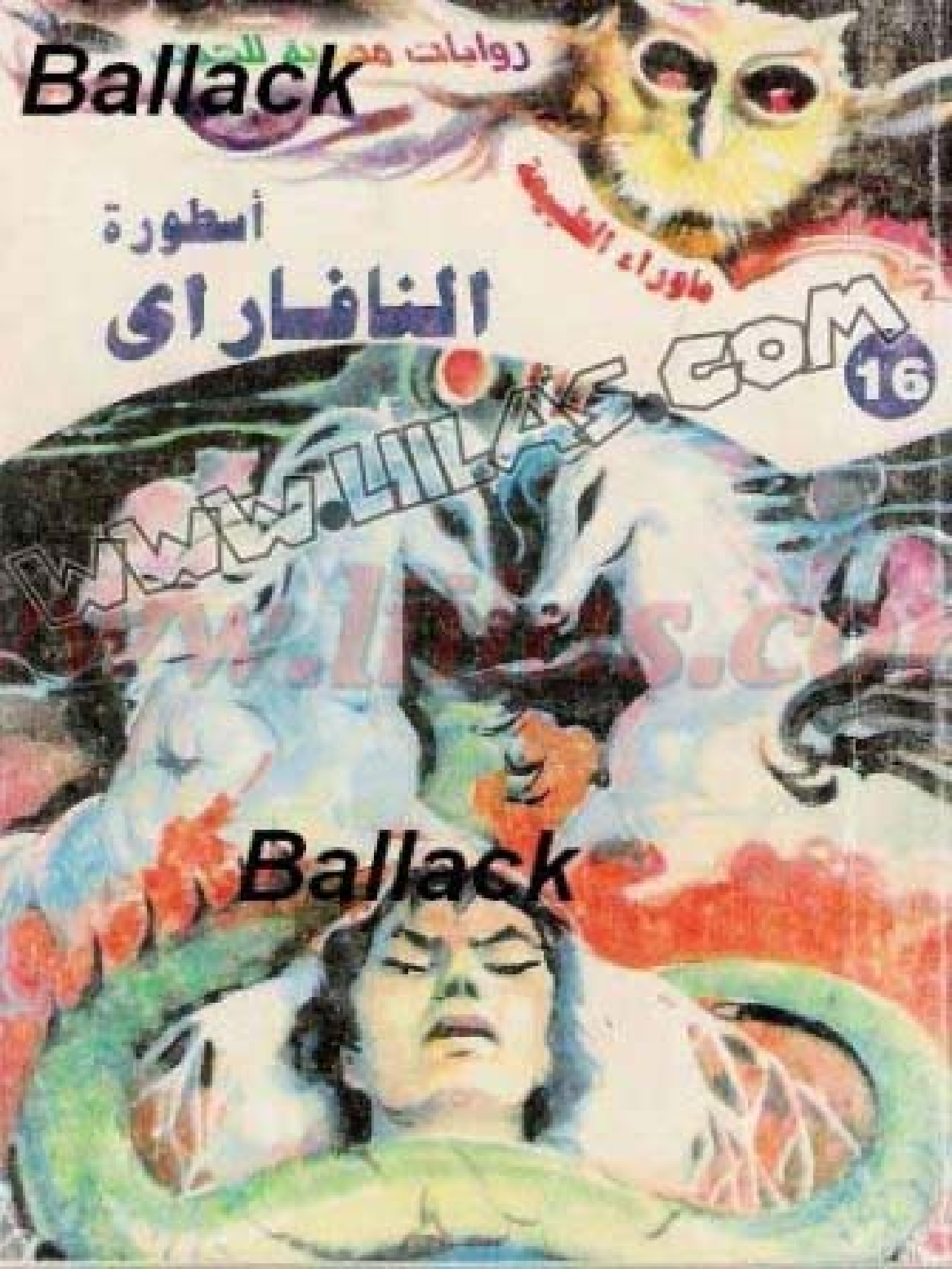

مقدمة

تحية لكم ..

هو ذا مضيفكم (رفعت إسماعيل) يواصل سرد حكاياته ..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) ، أستاذ أمراض الدم الذى يقترب - حثيثًا - من السبعين ، والذى لم يتزوج قط .. ، والذى قضى زهرة شبابه جوار توابيت مصاصى الدماء .. وفى الأقبية المسكونة .. والغابات التى يجوبها المذءوبون فى ضوء القمر ..

التفوا حولى ولا تخافوا ..

إن الليل ما زال فى أوله أو - كما يقول الإنجليز - ما زال الليل طفلًا .. ولدينا ساعات طويلة نقضيها معًا نرشف أقداح الشاى ونثرثر ..

فقط - عدونى - تحملوا نبرة صوتى الواهنة ، ورجفة أطرافى ، وسعالى المتحشرج .. وطيفًا رائحة التبغ التى تفوح من كل شىء فى عالمى ..

إن حديث الشيوخ ممتع أبدًا ..

لأنهم ـ وقد قاربوا الأبدية ـ دنوا أكثر من الحقيقة .. وتخففوا من القشور المملة السطحية .. ونسوا آفة التظاهر بالحكمة ..

أنا كنت صغيرًا يومًا ما وكنت أعشق ثرثرة الشيوخ في الليل ..

سأحدثكم اليوم عن (النافارای) ..

تذكرون ـ ولا شك ـ أسطورة الكاهن الأخير التي لم أستكملها بعد ، ولا أدري السبب في الواقع .. إنني أشيخ .. وذاكرتي تتداعى ، لكني لم أنس التفاصيل قطعًا ..

لتقل إنني لم أنس القصة لكنني نسيت ضرورة حكايتها !..

والآن دعوني أستكملها وسامحوني على كل هذا التأخير ..

لك (هن ـ تشو ـ كان) عاد لكم .. فأفسحوا له مجالًا بينكم ..

فلننعش ذاكرتنا !

دعوني أذكركم بما حدث حتى لا أكلفكم مشقة البحث عن الكتيب الحادي عشر ، ومحاولة تذكر ما إذا كنتم قد وضعتموه على رف المكتبة .. أم فوق جهاز التلفاز .. أم تحت الفراش ، وما إذا كنتم قد أقرضتموه أم بعتموه .. أم استخدمتم أوراقه لتلميع مرآة الحمام .. أم ألقيتم به في أقرب صندوق قمامة ؟..

لا ترهقوا أنفسكم ودعوني أعد حكاية ما حدث ..

لقد تربى (هن ـ تشو ـ كان) في أحد أديرة التبت ، بعد ما تذرته أمه لذلك الدير .. وهناك اصطلح على تسميته (الزهرة الزرقاء) لنظرته ..

إن هذا الدير ليس بوذيًا .. بل هو خاص بعقيدة غريبة كانت سائدة في القرن الخامس عشر هي عقيدة (النافارای) ..

وفي الدير يدرك الصبي أن هؤلاء الرهبان يمارسون فنًا عجيبًا هو فن تفادي الخطر ، أو القتال السلبي .. ، ويكون عليه أن يخوض تدريبات قاسية مع الأخ (ميانج) يحرز فيها تقدمًا ملحوظًا ..

www.ilias.com

وتكون الذروة هى عبوره للنفق (النيران الراقصة) حيث الاختيار الحق لقدرته على التقادى، وبالطبع ينجح نجاحًا مشرفًا ..

وهنا اسمحوا لى أن أقدم خصمه الحميم - أو صديقه اللدود - المدعو (جينغ - تشا) .. هو ليس نقيًا مثيلًا إلى هذا الحد .. وليس خصمًا شريفًا على الإطلاق .. سيأتى دوره المقيت بعد لحظات ..

وينتقل (هن - تشو - كان) إلى مرتبة أعلى ..

إذ يطلعه الكاهن الأكبر على كتاب (شوكارا) .. الكتاب الذى يمثل كل ما كانه (النافارانى) وكل ما سيكونونه .. إنه سرّ الأسرار وقدس الأقداس بالنسبة لهم ..

والآن يبدأ الفتى - الذى عرف هذا السرّ التكنولوجى - فى تعلم القتال الإيجابى (سارايانا)، ليتمكن من حماية الدير وحماية كل مقدساته ..

و (السارايانا) رياضة عسكرية معقدة قائمة على مهاجمة عدة مناطق حساسة فى جسد الخصم بعضها يؤدى للإغماء .. وبعضها يؤدى للشلل .. وبعضها - للخصم الملحمى حقًا - يؤدى للوفاة ..

لكن قواعد القتال تحتم إنذار الخصم أولًا بأن الـ (سارايانا) ستبدأ وقد أعذر من أنذر ..

* * *

وفى يوم كئيب يدرك الفتى أن خصمه (جينغ - تشا) قد تحالف مع كهنة الـ (ماهايانا) أعداء (النافارانى) التقليديين .. وثمن هذا التحالف هو كتاب الـ (شوكارا) ..

لقد مات كل (النافارانى) مسمومين بالشاى ..

ويكون على الفتى أن يفرّ بالكتاب الثمين بعيدًا ..

لقد صار هو الكاهن الأخير .. آخر (نافارانى) على وجه الأرض .. ولئن هلك هو أو أسلم الكتاب فلن يبقى أثر لهذه الفلسفة العظيمة إلى أبد الدهر ..

وفى الكتاب وجد أسلوبًا بديعًا - لكنه خطر - يدعى (شانكين) ..

بعد أسلوب (الشانكين) إلى نقل الفتى إلى زمن بعيد وأرض بعيدة غير محددين سلفًا .. ولكن الفتى لا يملك ترف الاختيار ..

ويفرّ .. يفرّ بعيدًا ..

إلى أرض لم يرها من قبل، ووجوه سمراء لم يألفها قط ..

ونعرف نحن أنه وصل إلى (مصر) فى القرن العشرين .. إلى قرية (كفر بدر) قريتى الحبيبة! (إنها مصادفة غير عادية لكننا اتفقنا على أن نصدقوها) ..

ويجيد الفتى التخفى متظاهرا بأنه محتوه .. ويندمج فى أسرة أحد الخفراء وتنشأ علاقة حب مبتورة بينه وبين ابنة الخفير التى لم تصدق قط أنه ذلك الأبله الذى يدعيه ..

ويصدق حدسها حين تقع فريسة لبعض اللصوص الذين يوشكون على إيذائها مما يضطر الفتى إلى استعمال أسلوب (تارزيانا) للدفاع عنها برغم ما فى ذلك من فضح لسره ..

لكنها لم تسعد بذلك ..

لقد تنابها الذعر وأدركت أن هذا الأجير الذى يعيش معهم هو نوع من الجان أو الشياطين .. وكان أن لجأت إلى خبير الشياطين الوحيد الذى تعرفه ..

أتعرفون من ؟.. طبعًا أنا ولا فخر !

★ ★ ★

كأن هذا هين !

التعرف على شاب غريب الأطوار لا يتيح لك لحظة ومحاولة معرفة سره .. لم أتمكن - بالطبع - سوى من تبين أن الفتى ليس مصريًا .. وليس محتوهًا .. بل هو يخفى سرًا لا يعلمه إلا الله ..

وحين أوشكت على الاستسلام ، كان الفتى قد قرر أن يثق بى ..

لماذا ؟..

لأنه وجد ضفيرة وثيابًا مما دله يقينًا على أن خصمه (جينغ - تشا) قد لحق به فى هذا الزمن وهذا المكان ، وبالتالى صار العثور عليه مسألة ساعات أو أيام ..

لذا ألقى بى .. وبعربية متعثرة لم تمارس قط اعترف لى بقصته وطلب منى أن أعاونه فى العثور على (جينغ - تشا) ، الذى هو - حتمًا - متنكر فى مكان ما وينتظر ..

ولقد استعنت بصديقى مأمور المركز ، لكن النتيجة كانت سلبية .. لم أجد أثرًا لخصمه المشاغب فى القرية .. أى (هن - تشو - كان) لقى مأزق حقًا ..

وكانت الفكرة التى خطرت لى هى أن أرسله إلى دارى بالقاهرة ، حيث يذوب فى الزحام فلا يجده أحد ..

ولم تنفيذ الفكرة فورًا ..

★ ★ ★

وفى شقتى بدأت أجد لونًا من التسلية فى صحبة هذا الفتى ببراءته وسذاجته ومثاليته وشجاعته .. وشاهدت معه أغرب التدريبات التى كان يمارسها على سطح البناية التى أعيش فيها ..

صحيح أنه كان مولعًا باصطياد القطران من حين لآخر .. وصحيح أنه كاد يقتل لصًا قابلناه فى الحافلة (لأنه سبنى) على حد قول (هن - تشو - كان) ..

لكن ـ المحصلة ـ كانت أن الحياة معه مسلية إلى أقصى حد ، وقد آذاب جدار الوحدة الذى حاصرنى إلى حد مروع ..

لهذا ـ وهذه طبيعة الأشياء ـ كان لابد أن تحدث مصيبة ..

★ ★ ★

المصيبة كانت هى زوج أختى الذى اتصل بى من (كفر بدر) يقول لى أن هناك شابًا يشبه (هن ـ تشو ـ كان) كان يفتش عن توأمه المفقود بين القرى .. وأن هذا الشاب كان يشعر بشوق شديد نحو أخيه .. وبالتالى دلّه زوج أختى على عنوانى فى القاهرة شاعرًا بالسعادة لهذا العمل الخير الذى وفقه الله إليه !..

وقبل أن أتخذ قرارًا كان قد وصل لشقتى ..

(جينغ ـ تشا) شخصيًا ، اقتحم الشقة وضربنى علقة ساخنة دون مبرر حقيقى .. ثم طفق ينتظر عودة الكاهن الأخير من الخارج ..

وعاد الكاهن الأخير ..

وبدأت المعركة المروعة بين العدوين اللدودين ، لا تنس هنا أن (جينغ ـ تشا) كان على علم لا بأس به بأساليب الـ (ساراياتا) .. بالإضافة إلى شراسته ..

وهكذا ترى أن الخصمين متساويان تقريبًا للأسف ..

وكان علىّ أن أفرّ بعيدًا ..

أفرّ إلى شقة جارى (زكريا) بالطابق الأسفل لتغلق الباب على أنفاسنا وتصغى إلى صوت الشجار بالطابق العلوى ..

وهنا أدركنا حقيقة مروعة ..

لم يكن (جينغ ـ تشا) وحده .. بل معه حشد من رجال (الماهاياتا) الذين حاصروا البناية وقطعوا خطوط التليفون ..

إنهم استخدمونا كوسيلة للضغط على المحارب الشجاع .. فإما الكتاب وإما حياتنا نحن السكان الأبرياء معدومو الحيلة ..

يا له من مأزق !..

إن الكاهن الأخير يعرف كيف يدافع عن نفسه .. لكن مهمته تصير معقدة جدًا حين تطالبه بالدفاع عنا كذلك ..

وبرغم أننى أمقت أغلب جيرانى إلا أننى لا أحب موتهم إلى هذا الحد ..

وحتى إذا تمنيته فليكن ذلك بعيدًا عنى !..

وهكذا .. تبدأ قصتنا الحالية ..

★ ★ ★

« عندما تغرب الشمس وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر (الشافارای) .. »

www.liilas.com

لكنهم نسوا النوافذ !

تذكرت هذه الحقيقة فى ذات اللحظة التى تذكرتها ابنة الأستاذ (زكريا) الكبرى .. رأيتها تخرج من الغرفة وشعرها مغطى بشبكة تحتها عشرات من تلك (البوبينات) التى تلف للسوة شعورهن عليها مما يعطى مظهرهن طابعا فضائيا (وكأنها فكرة خيال علمى) ..

رأيتها تهرع للخارج .. إلى الصالة صائحة فى أبيها :

ـ النوافذ يا أبى ..!.. فتحسنت من النوافذ ..

صحت فى حماس وقد رافقت لى الفكرة :

ـ هذا مناسب تماما .. لنطلب من أحد المارة أن يحضر الشرطة ..

وعالجت مزلاج النافذة ففتحته .. ثم وقفت أرمق الشارع فى شرود على ضوء أعمدة النور المتناثرة ..

لم يكن هناك أحد .. ولا واحد فى الشارع الراقى الضيق الذى يمتاز بالهدوء طوال العام .. فقط سيارتان واقفتان الى جوار سيارتى ..

وثمة قط مذعور يفر بعيدا .. ثم لا شىء ..

ابتلعت ريقى .. ثم فتحت فمى عن آخره :

ـ النجدااااااه !.. الغاااااوث !

بدا لى صوتى مهذلا وغريبا خاصة وأننى لم أعتد على الصياح فى حياتى .. وكأن الفتاة وجدت هذا غير كاف ! فربت رأسها جوار كتفى وصاحت بصوت رفيع رائع تقليد بإيقاظ الموتى :

ـ لنجدااااااه !

لكن كل هذا الصراخ ذهب بلا جدوى ..

ظل الشارع ساكنا بلهذا كما كان وكما سيكون فيما يبدو ..

إن شيئا فى كل هذا ليس على ما يرام ..

★ ★ ★

عدت ـ يكتفين منحنيتين ـ إلى داخل الصالة .. أواجه النظرات الحيرى للأستاذ (زكريا) وزوجته وبناته ..

ـ والعمل ؟

ـ لا عمل .. لننتظر هنا حتى تنتهى المشاجرة ..

ـ والرجل الواقف بالباب ؟

ـ إنه لم يحاول الدخول ولا تهديدنا .. كل ما يريده هو أن نظل حيث نحن وحتى تنتهى شوية الحساب ..

وجلست على مقعد مريح ، ولم تكن معي سجائري .. لحسن الحظ أن الأستاذ (زكريا) يدخن .. وبنظرة متسائلة أشرت إلى علبة سجائر موضوعة على المنضدة .. فأشار لي أن لا مانع ..

وأعدت لنا الزوجة بعض أكواب الشاي وبعض شطائر الجبن ، وعادت لتجلس معنا متسائلة في توتر (كانت على شفير الانهيار العصبي) :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟.. من هؤلاء ؟

ـ إن شرح هذا يطول يا سيدتي .. لكن لنقل إن زميلي في الشقة يمثل الخير واللون الأبيض .. أما هؤلاء الأوغاد فهم اللون الأسود بلا ظلال !

وهنا دوى صوت صرخة عنيفة من الطابق العلوي .. ثم صوت صرخة مضادة وأشياء تنقلب كأن فيلاً يتعثر وشب الجحيم هناك ..

ـ يجب أن نمد له يد العون .. ذلك البائس !

جرعت جرعة كبيرة من كوب الشاي واضطجعت مسترخيًا على المقعد :

ـ إن قتال هذين لشبيه بقتال الديناصورات التي تريتها في الأفلام الخيالية ، ولن يلعب (المخلص) بينهما أكثر من دور الدبابة .. أي أن كل ما سيفعله هو أن يُسحق أو يُمزق .. صدقيني .. من الأفضل عدم التدخل ..

المزيد من الصراخ والركلات و .. تهاوى سارايانا .. كيو سارايانا .. إذن هناك آخرون قد دخلوا الخط ..

وهنا حدث ما كنت أخشاه ..

لم أفهم ـ في البدء ـ معنى هذا .. فقد خيل لي أن دبابة تهشم باب الشقة ، ثم رأيت قدمًا حافية متصلبة الأوتار والعضلات تشق خشب الباب دون رحمة تصاحبها ضربات من يد مشابهة ..

وبعد ثانية كان رجل صيني شرس الشكل يحمل خنجرًا كبير المظهر ..

كان هذا الرجل قد دخل إلى الشقة وبوغتة واحدة كان عندي .. و .....

يؤسفني أن أذكر أنه جرني من قفاي جرًا إلى الباب .. وأنا أمسك بكوب الشاي مردنا :

ـ لحظة أيها الحيوان !.. الشاي سينسكب علي !

لكنه ـ بالطبع ـ لم يعر كلامي انتباهًا ..

وشعرت بنفسي أحمل حملًا إلى منحنى الشقة .. الإضاءة الخافتة على السلم والظلام الدامس القابع على الأطراف ينتظر ..

وحين رفعت عيني لأعلى رأيته ..

واقفًا عند أعلى درجات السلم منحفزًا كالنمر .. غاضبًا كالثور .. متوترًا كالثعبان .. كان (هن ـ تشو ـ كان) ..

وعلى درجات السلم تناثرت ثلاثة أجساد مهشمة لا تبدى حراكًا .. واضح طبعًا أنهم من رجال (الساهاياتا) الذين نالوا عقابًا لن ينسوه ..

وكان الفتى يردد فى هستيريا حانقة :

ـ سوان هاتشاه (سارايان) !

يا لك من معتوه !.. ليس هذا هو وقت البروتوكول .. اضرب ثم تكلم .. إن هذه المثاليات والتشبث بالتقاليد ستقودك حتمًا إلى كارثة ..

ثمة جسد رابع يتلوى وهو يئن على بعد أمتار من مكانى .. واضح طبعًا أن هذا هو جسد (جينغ ـ تشا) الذى كوفئ على حماسه بسقوطه من فوق درجات السلم مهشم العظام .. لقد كانت الغلبة للكاهن الأخير إذن ..

وشعرت بجسدى الوغد الذى يقيد حركتى يتصلب ..

ثم شعرت بنصل الخنجر يتحسس شيئًا ما فى عنقى .. ذات الوريد البارز الذى داعبه الزومبى وسفاح الإسكندرية يومًا ما ..

فما إن رأى (هن ـ تشو ـ كان) المشهد حتى صرخ فى جزع ..

ـ (ريفات) !

وهنا سمع صوت خطوات من أعلى فرفع بصره ـ وكذا

وشعرت بجسد الوغد الذى يقيد حركتى يتصلب ..

ثم شعرت بنصل الخنجر يتحسس شيئًا ما فى عنقى ..

فعلت أنا ـ ليجد (عزت) جارى المثال اليابس ، بقامته الناحلة ولونه الأسمر العجيب .. كان يرتدى مقدمة زرقاء وحافى القدمين مما دلنى على أنه كان غافيًا حين فوجئ بالكارثة التى هبطت عليه ، فى صورة صينى آخر مفتول العضلات يلوح بخنجر مبهج الشكل ويهدده باستعماله ..

ومن لطائف الأسطى نمحت صينيًا آخر يمسك باللواء (محمد حلمى) المتقاعد .. وكان يرتدى فانلة داخلية وبنطال بيجامة ويصدر عبارات التهديد لهؤلاء الأوغاد .. الأمر الذى بدا لى مضحكًا ..

لقد صار الموقف واضحًا ..

ولمحت ـ بطرف عينى ـ جهازًا معقدًا من الترومن والسلاسل والتوصيل موضوعًا على السلم ، أنا لا أدرى ما هو ، لكنه ـ حتمًا ـ جهاز تعذيب عبقرى قادم من عالم محاكم التفتيش .. وبالتأكيد سيبدءون فى تجربة هذه التحفة علينا أمام عينى (هن ـ تشو ـ كان) ..

حمدًا لله أن هؤلاء الأوغاد اكتفوا بتهديد الرجال ، فلو بدءوا بتهديد بنات الأستاذ (زكريا) أو المهندس (سليم) لكان الموقف محطمًا للأعصاب إلى حدّ لا يوصف ، ولاضطررنا ـ واضطر (هن ـ تشو ـ كان) ـ إلى التهور مهما كانت النتائج ..

ثم إن هناك متعة لا تنكر فى أن أرى الأستاذ (زكريا) يُعذَّب حتى ولو كنت أنا التالى فى الدور له !

بتؤدة يلهيض (جينغ ـ تشا) من رقدته .. بلقة بجلس .. بسماجة يتكلم .. موجهًا كلامه إلى (هن ـ تشو ـ كان) .. والكلام بلغة (الأفاراى) التى لا يفهمها سواهم (وأشك أنهم يفهمونها فى الواقع) ..

نظرة يلهاء مذهولة فى عينى (عزت) .. المسكين .. لابد أنه يحسب كل هذا كابوسًا .. لقد صحا من النوم ليجد نفسه وسط كل هذا ..

أما المهندس (سليم) فأخذ يتساءل فى حيرة :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم !.. أية لغة شيطانية هذه ؟

ـ شششش ! إنها لغة (الأفاراى) !

لا أحتاج لأن أكون عبقريًا كى أفهم ما يُقال ..

لقد صار هؤلاء الأبرياء فى قبضتنا أيها (الزهرة الزرقاء) ، وحياتهم رهن بإشارة منك .. فإذا سلمتنا كتاب الـ (شوكارا) فقد كفى الله المؤمنين القتال ، وإذا رفضت فسترى أسوأ مجزرة لم تزر كوابيسك بعد ..

والمرة الأولى أرى إمارات الغباء والحيرة على وجه (هن ـ تشو ـ كان) ..

كان عاجزًا عن اتخاذ القرار الصائب ..

عاجزًا عن إنقاذنا جميعًا في نفس الوقت . فمهما أجاد وأسرع فحتمًا سيفلت منه واحد أو واحدان يطيحان برأس أو رأسين ..

كان عاجزًا عن تسليمهم الكتاب ـ تراث أجداده المقدس ـ وحتى لو فعل فمن يضمن له النتائج ؟!..

أما عني أنا فالاختيار بسيط جدًا ..

أنا أرفض أن أموت في سبيل كتاب مقدس عند رهبان (التبت) في القرن الخامس عشر !.. هذا هو رأيي وأرفض أن أرى الموضوع على أي ضوء آخر ..

نعم هو رأيي .. ولكن من يصغي ؟

★ ★ ★

أطلق (عزت) ألمًا .. ثم تهاوى على الأرض ..

يا للكارثة !..

كنت أعرف أن هذا سيحدث .. وها هو ذا ذلك الأحمق يصاب بهبوط حاد ناجم عن فرط الانفعال . وأرجو ألا ينسى القارئ أنه ـ (عزت) لا القارئ طبعًا ـ مصاب بفشل الغدة فوق الكلوية ، ويعيش على (الكورتيزون) ..

سيكون صعبًا أن أشرح تاريخ حالته الطبية بالإشارات لهؤلاء المتحصنين ..

لكن الحقيقة .. الحقيقة التي لم تفارقني هي أن الفتى في وضع خطر ، وستزداد حالته سوءًا لو لم ينل حقنة كورتيزون حالاً ..

★ ★ ★

دارت محادثة طويلة مملة بين (هن ـ تشو ـ كان) و (جينغ ـ تشا) ..

ولنظرًا لأنني لا أريد أن يفارقني القارئ فإنني سأعفيه من ذكر استنتاجاتي بشأنها .. فلا بد أنها نوع من صياح الديكة المتحفزة قبل القتال ..

www.dvd4arab.com

وفجأة رأيت (هن ـ تشو ـ كان) يمد يده إلى أزرار قميصه .. يفتحها .. وينزع القميص كاشفًا عن جسده العضلى المتوتر ..

وحول خاصرته رأيت كيسًا من (النايلون) مربوطًا بحزام قماشى ..

إذن كان هذا هو موضع الكتاب طيلة الوقت .. فهو لم يثق فى أى مكان يخفيه فيه .. وهو ذا قد استسلم أخيرًا ..

ورأيت الفتى يفك الحزام ويلوّح به وبالشىء الموضوع فى الكيس ..

لكن (جينغ ـ تشا) رفع كلمة ما فى عناد ..

واضح ـ طبعًا ـ أن الفتى يطالبهم بإطلاق سراحنا ..

أما (جينغ ـ تشا) فيصرّ على موقفه .. الكتاب أولًا ثم نرى كيف تتصرف ..

كلاهما مصمم على رأيه .. وقد بدأ الملل يعتصرنى ..

مرّت اللحظات ثقيلة ..

ثم .. هو ذا (هن ـ تشو ـ كان) يطوّح بالكيس فى الهواء ..

وتشتت انتباه العصابة ليروا أين سيسقط الكتاب ..

وكانت هذه هى اللحظة التى انتظرها الكاهن الأخير طويلًا ..

أما ما حدث بعد ذلك فلا يصدق ..

أنتم تذكرون تدريبات الفتى المتواصلة مع الفئران وتم تصدقوا حرفًا ..

الآن تصدقون !

★ ★ ★

حين تمتزج بالكون وتتعلم أسراره ..

حين تتعلم منه سرعة البرق .. وقوة الفيضان .. ومضىّ الشهب ..

حين تتشرب منه رقصة الإلكترونات المحمومة حول نواتها ، وصبر المذنبات التى لا تتساءل عن مغزى رحلتها السرمدية ..

وحين تفهم منه معنى الأبدية .. وأحلام النجوم ..

عندئذ يمكنك أن تكون هذا الرجل ..

★ ★ ★

كانت الوثبة طويلة من أعلى درجات السلم ..

ولمحت الوغد الذى يكبّل حركتى وقد هوى على الأرض ، ثم رأيت قدمًا تضرب (جينغ ـ تشا) على جذور عنقه ، وكفًا تهوى بين عنق أحدهم وكتفه ..

ولمحت الرجل الذى يهدد لواءنا المتقاعد وهو يتدحرج على السلم .. ثم رأيت الخنجر يطير فى الهواء ليستقر فى صدر وغد آخر ..

ثم هوى الكتاب عند قدمي بالضبط !..

عندئذ ـ فقط ـ بدأت أدرك حجم المعجزة التي تمت أمامي . وأدركت أننا بحاجة إلى أسابيع طويلة قبل أن نفهم ما فعله الكاهن الأخير ..

على السلم كانت هناك ثلاثة أجساد مهشمة فازداد العدد قليلا ..

انحنيت على الكتاب لالتقطه لكني سمعت (شخطة) من (هن ـ تشو ـ كان) كي أتركه حيث هو .. واضح أنه لا يريد تدنيس الكتاب بأيدي غريباء ..

ثم إنه وقف على قدميه .. العرق يغرق ثيابه ويسابه ـ كالشلال ـ من فوق شعر حاجبيه .. بصوت لاهث يهتف :

ـ سوان هانشاه سارايان !

ثم ينحني جوار (جينغ ـ تشا) المسجد بلا حراك على الأرض .. فيرتمي على جبينه مرددا بلا كلل :

ـ (جينغ ـ تشا) .. سوان هانشاه سارايان !

هو ليس مقصرا بما فعل ..

وها هو ذا يعتذر لـ (جينغ ـ تشا) لأنهم أرغموه على ذلك ، وأنهم اضطروه لاستعمال أسلوب (سارايانا) الذي ـ كما هو واضح ـ يعتبره قذرا ..

لقد انتهت المأساة بمذبحة ..

لكن ـ على الأقل ـ ليست نهايتنا هي التي تلطخ درجات السلم ، وكنا أقرب ما يكون لذلك ..

ينهض الكاهن الأخير .. يمشي بتؤدة ليأخذ الكتاب حيث سقط عند قدمي ، و .....

ـ احترس يا (هن ـ تشو ـ .....) !

ولم أكمل تحذيري ..

إذ رفع (جينغ ـ تشا) رأسه بمجرد أن أدار (هن ـ تشو ـ كان) ظهره له ـ إن هذا المتعصب لا يهلك أبدا !..

ورأيته يمسك بأداة هي عبارة عن كرة فوارة تبرز منها الأشواك ، كتلك التي يظهر سحاريو (التبتا) وهم يقاتلون بها دائما في أفلام (هونج ـ كونج) الرديئة ..

وبآخر ما تبقى لديه من قوة .. بقايا الروح التي تفارق جسده سريعا ..

قذف الكرة التي دارت في الهواء بسرعة جنونية ..

ثم استقرت في مؤخرة عنق (هن ـ تشو ـ كان) ..

تقلص وجه الفتى وارتسمت عليه أعتى آمارات الألم .....

اللعنة !..

إنه يتهاوى كالبالون المثقوب ..

تنثني ركبتاه .. يرتخي ذراعاه ..

ثم يغمغم شيئا ما ..

ويتكفن على وجهه بلا حراك !

★ ★ ★

سقط (هن ـ تشو ـ كان) عند قدمي فوق كثيب ..

أطلقت صرخة رعب .. وانحنيت لأريح رأسه على ركبتي .. ثم مددت يدي بحذر وانتزعت الكرة الدوارة من مؤخر عنقه ..

كانت لينة ـ وهذا غريب ـ خفيفة الوزن ـ وهذا أغرب ـ تشع منها إبر صغيرة مجوفة ..

وهنا فهمت ..

إن الضرر الذي تحدثه هذه الكرة ليس ناجمًا عن قوة ارتطامها ، والأذى الذي تسببه للتركيبات الحيوية .. بل هو ناجم عن قيامها بحقن سمّ ما ..

هأنذا أعتصر الكرة بحذر فينزّ سائل أخضر اللون من أطراف الإبر ..

وهذا السائل هو ما يجري الآن في عروق الكاهن الأخير ..

وكانت الكرة مزودة بطوق عار من الإبر ليمسح لمن يقذفها ألا يدمي أصابعه هو نفسه ..

ولكن ما كنه هذا السم ؟..

أنا لا أعرف سموم هؤلاء القوم لكني أستطيع تخيلها .. سمّ من أسنان ثعبان الصخور الأرقط .. أو من أنياب التنين المطحونة .. أو من عصير الوطاويط .. أو أي شيء من هذا الهراء الذي لن أعرفه أبدًا ..

فتحت عيني (هن ـ تشو ـ كان) فوجدت الحدقتين ضيقتين دبوسيتين ..

وكان يتنفس بصعوبة واللون الأزرق يزحف على شفتيه ..

إذن سنقتدي بالقاعدة الطبية القديمة : إذا كان السمّ مما يضيق حدقتي العينين ، فالترياق المناسب لابد أن يوسعهما !..

أرحت رأسه على الأرض وهرعت إلى شقتي وسط التساؤلات ..

وتناسيت الفوضى في كل مكان ـ كأن إعصارًا مرّ بالشقة ـ جريت إلى الصيدلية الصغيرة في الحمام ، فكسرت ستة أمبولات من (الأتروبين) .. وعبأت محقنًا بها ..

قد يكون السمّ مشتقًا من مادة الفوسفور العضوي .. وقد يكون من قلويدات الأفيون .. وقد يكون من مشتقات (الارجوت) .. وقد يكون مادة ما لم أسمع عنها ولا يعرفها أحد ..

www.dvd4arab.com

كل شيء جائز ..

لكني لن أنتظر حتى يموت (هن ـ تشو ـ كان) بينما أرمقه في حزن ..

يجب أن أفعل شيئاً حتى ولو كان هذا الشيء هو التعجيل بموته !

★ ★ ★

وتزلت درجات السلم لألحق بالفتى حين حدث شيء غريب ..

لم تكن هناك جثث .. لم يكن هناك صينيون !..

اختفوا .. تبخروا .. ذابوا في اللانهاية ..

فقط كان جسد (هن ـ تشو ـ كان) هناك وقد أراح رأسه على ركبة الأستاذ (زكريا) .. ولمحت الذهول في عيون القوم .. فأين ذهب المعتدون إذن ؟

لكنني استطعت أن أفهم ....

لقد عادوا إلى عالمهم بمجرد أن قضوا نحبهم ..

كأن (الشانكين) يأتي يجذب هؤلاء القوم باستمرار نحو زمنهم وأرضهم ..

وحين ماتوا فقدوا ارتباطهم بهذه الأرض وعادوا محلقين إلى عالمهم ..

كل هذا غريب ..

فقد كان جسد (هن ـ تشو ـ كان) هناك وقد أراح رأسه على ركبة الأستاذ (زكريا) ..

لكنه يعني أن (هن ـ تشو ـ كان) مازال حيًا ، ومازال مربوطًا بهذه الأرض وهؤلاء الناس وهذا الزمن ..

★ ★ ★

أفرغت الممرضة في عروقه الناقرة وانتظرت في أمل ..

والآن .. ها هي ذي علامات (الأتروبين) تظهر عليه .. وجهه يتقد كجمرة متوهجة .. حدقتاه تتسعان .. لسانه يجف كقطعة من القش .. قشور بيضاء تحتشد على شفتيه .. نبضه يتسارع ..

المفروض أن ينهض ..

لكن هذا لم يحدث ..

إن الأمر أعقد مما تصورت ، ولم يعد ثمة ما أفعله سوى نقله إلى المستشفى الجامعي ـ حيث أعمل ـ لمعرفة ما يمكن عمله ..

★ ★ ★

وتعاونت مع (عزت) ـ الذي استعد قواه نوعًا ـ لنحمل الفتى إلى سيارتي ، ثم أنهب بها الشوارع نهبًا قاصدًا المستشفى ..

وهناك تعاون طبيبان شابان من أطباء التخدير على إيلاج أنبوب القصبة الهوائية في حنجرته ، ثم وصلاها بجهاز للتنفس الصناعي ، وتم إجراء بعض التحاليل

الدموية ، وحقن بتترات لا جدوى منها من مادة الدكستروز في عروقه ..

قال أحدهم مضيقًا عينيه في ذكاء :

ـ تبدو لي كحالة من .. من ...

تساءلت ملهوفًا :

ـ من ماذا ؟

ـ من تسمم (الأتروبين) !

تبًا لك !.. لقد كنت أنا من حقنه بالأتروبين منذ دقائق !..

إن مشكلتنا ـ وهذا جلي لي ـ بلا حل ..

فإما أن يعود (هن ـ تشو ـ كان) إلى الحياة من تلقاء ذاته ، وإما أن يموت من تلقاء ذاته ، وليس لدينا سوى الانتظار ومصمصة الشفاه ..

منحنى الكتفين مطأطئ الرأس عدت لداري بعد كل هذه الضوضاء ..

الساعة تقترب من الواحدة من صباح اليوم السادس من مايو ..

أصعد في درجات السلم في توجس ..

لقد رحل رجال الشرطة من زمن ، وعاد الجيران إلى شققهم .. فلم يبق أثر سوى باب الأستاذ (زكريا) المهشم الذي ثبته بالمسامير مؤقتًا حتى يهد من يصلحه

في الصباح .. لابد أنهم قد ناموا على أمل أن يعرفوا في الصباح أنهم كانوا يحلمون ..

و ..... لحظة !..

نسيت شأن الكتاب تمامًا !..

صحيح أنه لا يهمني في شعرة لكنني ـ حتمًا ـ أحترمه وأحترم تضحية (هن ـ تشو ـ كان) بحياته من أجله ، فلا أريد لهذا الرمز أن ينتهي في سلة المهملات أو تلف فيه أقراص (الطعمية) ..

إن اهتمام الآخرين بشيء ما ـ فكرك ـ يضفي أهمية حقيقية على هذا الشيء ، ولهذا يتلخص كبرياء الوطن في قطعة قماش هي العلم .. ويتلخص حبك لزوجتك في حلقة قد تكون من الذهب وقد تكون من الفضة هي الدبلة ..

ويتلخص كل كيان الفتى وذكرياته في هذا الكتاب الأبله (الشوكارا) ..

لهذا ـ ومهما كنت قاسيًا ـ لا أجرؤ على إهمال هذا الكيان ..

قرعت الجرس الوحيد الذي جرؤت على قرعه في هذه الساعة .. جرس جاري (عزت) الذي يحيا كذئب وحيد ..

انفتح الباب وظهر لي بوجهه الأسمر النحيل الكالح

متسائلًا عما هنالك ، فما إن رآني حتى أشرق وجهه ودعاني للدخول هاتفًا :

ـ أن تفهمني كنه هذا الذي حدث ؟

ـ نعم .. فيما بعد لكن ليس الآن .. والآن هلا أخبرتني بما حدث لذلك الكتاب الملفوف في كيس ، والذي أخرجه الفتى من تحت ثوبه ليقدمه للمعتدين ؟

صاح في حيرة وهو يحك ما تحت إبطه :

ـ كيف لم تر ما حدث ؟.. آه !.. لقد جريت إلى شقتك لتحضر المحقن .. حسن .. لقد زحف أحد الرجال ـ أكثرهم عدوانية ـ نحو موضع الكتاب ، و ...

ـ تعني أن (جيفارا ـ تشا) لم يكن قد مات بعد ؟

ـ كان يلفظ آخر أنفاسه إلا أنه التقط الكتاب واحتضنه .. ولم يجرؤ أحدنا على منعه بالطبع .. ، ثم ...

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم أخرج قنينة صغيرة جدًا ـ بحجم الإصبع ـ وجرع ما فيها .. وسقط متكفئًا على وجهه .. بعدها ذاب .. تلاشى تمامًا هو ومن معه من رجال ، .. (رفعت) !.. أنا أسمع كثيرًا عن الهلوسة الجماعية ، فهل ما مررنا به نوع منها ؟ .. وما هو سبب كل هذا ؟

ثم أشرق وجهه بنشوة الفن وهتف :

ـ آه لو رأيت منظره وهو يزحف فوق درجات السلم !.. الأسد الجريح !.. يا للبله ويا لرشاقته !.. إنني عاكف الآن على رسم (اسكتشات) أولية لهذا المشهد بغرض صنع تمثال جديد ..

هل تحب أن تراها ؟!

.....

★ ★ ★

كان هناك ...

إنه لم يفقد ذاتيته بعد .. وهو يعرف نفسه كأفضل ما يكون ..

أما كيف وصل هناك فموضوع آخر ..

تذكر فقط أنك قد أربيت خصومك جميعًا ، فتساقطوا كالفراش حول النيران .. لقد انتصرت (الساراباتا) على جنود الظلام ..

وتذكر أنك انحنيت جوار (رفعت) لتأخذ كتاب الـ (شوكارا) ..

ثم .. الألم الحارق في مؤخرة عنقك .. بغتة ..

القوة تتسرب من رقبتك كما يتسرب البخار من (السماور) ..

عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ أدركت أنهم قد نالوا منك ..

والآن أنت هنا يا (هن ـ تشو ـ كان) .. أنت هنا ..

★ ★ ★

لم يكن هناك أفق ..

ولم تكن هناك شمس ..

www.liilas.com

فقط الظلام العتيد .. الظلام البكر الأولى يمتد إلى ما لا نهاية .. وثمة خطان متوهجان باللون الأزرق المشع يمتدان ـ هما أيضًا ـ إلى ما لا نهاية .. فوق رأسه ..

وينظر (هن ـ تشو ـ كان) إلى قدميه ..

غبار أحمر متوهج يتطاير هنا وهناك محدثًا ـ تحت قدميه ـ صوتًا غريبًا غير مستحب ، كالصوت الذي تحدثه أسنانك في ثمرة كمثرى غير ناضجة ..

لقد نالوا منك ...

إذن أنت قد مُت يا (هن ـ تشو ـ كان) .. وهذا هو العالم الآخر .. أرض الأجداد التي سمعت عنها مرارًا ..

أنت مذعور .. ولكن في هذا دليلًا على أنك لم تلحق بالأجداد بعد ..

الأشباح لا ينتابها الذعر بعد ما ظفرت بالأبدية .. الذعر سمة الفانين ..

وأنت لا تصدق أن كل هذا ممكن ..

إذن .. أنت حيّ .. لكنك منفي هاهنا ..

★ ★ ★

وهنا يتصاعد الغبار الأحمر في الأفق ..

وبعين مذعورة ترى شيئًا يقترب .. ثلاثة أشياء في الواقع ..

لبرهة ظننت أنك ترى ثلاثة فرسان على خيولهم يقتربون منك .. ثم بعد ثوان أدركت أن الأمر ليس كذلك ..

فرسانًا نعم .. يركبون خيولًا نعم ..

لكنهم كانوا بلا وجوه .. مجرد أجساد تمتطي أشياء أقرب إلى الزواحف والثهيب يتصاعد من مناخرها .. ثهيب أزرق مضيء ..

وكان كل (شيء) من هذه الأشياء الراكبة يلوح بلسان من النار .. لسان طويل أخضر اللون تتناثر منه الشعلات في كل صوب ..

كانوا يريدونك ..

وهذا حسبك ...

أطلق الأول صوتًا عجيبًا ـ كأنه فقرة بيضة تتهشم ـ ودنا منك ملوحًا باللسان الأخضر .. ضخمًا .. رهيبًا .. مهيبًا ..

لكنك ـ حتى في هذا العالم ـ لم تنس أساليب التفادي ..

تمرغت في الغبار الأحمر فتناثر في كل مكان ..

لقد أدركت ـ بالفطرة ـ أن هذا اللسان الأخضر نوع من السلاح .. شيء يُقذف عليك من شخص لا يبدو وديدًا هو بالقطع سلاح لا تعرفه ..

وسمعت هذه السحلية تطلق فحيحًا ، ثم تمر جوارك نحو مكان ما ..

وعندئذ جاء الفارس الثاني ..

المزيد من قشور البيض تتهشم ، واللسان الأخضر يشب نحوك ..

وثبت في الهواء تتحاشاه ثم هبطت على قدميك على حين اندفع نحوك الفارس الثالث .. فمزقت نيرانه فوق رأسك ..

من هؤلاء ؟.. من أين جاءوا ؟.. أين أنت ؟..

لا وقت للإجابة ..

هأنذا واقف تتهيأ في حين يقف الثلاثة صفًا أمامك يتحرشون بك استعدادًا لمواصلة الهجوم .. والسحالي التي يمتطونها تنفث النار وتبعثر الغبار الأحمر بأقدامها الحانقة ..

حتى هنا لم ينس الفتى آداب (التافارى) ..

ـ « تشا سارايانا ! » .

صرخ وهو يثبت قدميه على الأرض ويفتحهما :

ـ « جيانغ سارايانا ! » .

قالها وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما :

ـ « كيو سارايانا ! » .

هتف بها وهو يرجع رأسه إلى الخلف كسهم في قوس .. ثم ..

ثم ترك الزناد .. فاندفع في الهواء نحو الفارس الأوسط ..

وبساق غاضبة وجه له ركلة عنيفة في صدره ..

لكن الساق لم ترتطم بشيء .. بل مرت عبر الصدر ، ليجد الفتى نفسه ساقطًا على الأرض وسط الغبار الأحمر البراق ..

لم يكن لهؤلاء وجود مادي إذن .. بل هم أطياف .. رؤى .. نوع من السراب الذي كان يراه في طفولته عبر صحاري الجليد ..

وكأنما كانت هذه هي الإشارة ..

اندفع الفرسان الثلاثة نحوه صارخين .. لكن صراخهم لم يزد على نوع من تهشيم قشور البيض كما أسلفنا الذكر .. صارخين من أفواه لا وجود لها ..

إنهم يلوحون بنيرانهم .. من المؤكد أنها لا تؤذي .. لكنه لن يجازف ..

تمرغ أرضًا ثم وثب ثم تمرغ أرضًا ليمر ما بين القدمين المخلبيتين لواحدة من تلك الزواحف التي تشبه الخيل ..

وحانت منك نظرة إلى السماء فرأيت أن الخطوط قد ازدادت خطين ..

خطين لونهما أزرق متألق يبدآن من اللا نهاية وينتهيان في اللا نهاية ..

ما معنى هذا ؟.. ما هو هذا المكان ؟..

★ ★ ★

وساق غاضبة وجه له وكالة عنقة في صدره ..

لكن الساق لم ترتطم بشيء ..

أنت في (زانادو) .. حيث تحيا الظلال على نماء الموتى .. وحيث يمزج الرعب خمر الفناء لمن ضلوا السبيل .. أنت في (زانادو) أرض الكوابيس فاخضع للخان العظيم ..

★ ★ ★

من قال هذا ؟

لا يدري .. لكنه سمع الصوت كأوضح ما يكون في دهاليز عقله .. وبرغم إنهاكه كان قادرًا على التفكير المتعقل ..

إنه لم يتوهم ذلك كله .. بل هو حقًا هنا يواجه هذه المسوخ ويصغي لهذا الصوت الذي يدعوه للخضوع .. صوت لا يتحدث بلغة معروفة لكنه مفهوم ..

ولكن ما هي (زانادو) هذه ؟!*

★ ★ ★

أنت في (زانادو) .. حيث يصير للمخاوف كيان ملموس، وحيث تخطو الأشباح في دهاليز الأبدية .. أنت في (زانادو) حيث الظلام السرمدي ..

(*) (زانادو) هي مملكة غيهنية عاش فيها (أوبلاي خان) في قصيدة (كبلاي) الشهيرة المسماة باسمي الاسم.

وحيث تعزف النجوم لحن العدم .. فاخضع للخان العظيم ..

★ ★ ★

مرة أخرى يسمع الصوت ..

وحتى إذا ما خضع لهذا الخان العظيم ، فكيف يفعلها ؟..

كيف يمكن إخبار هذه المسوخ ـ معدومة الرأس ـ أنك تستسلم ؟

إنهم يقفون أمامه صامتين .. على حين تصدر الزواحف خوارًا مستمرًا وتتحرك في قلق كأنها تريد مواصلة الهجوم ..

لكن الفرسان ينتظرون ..

من هو الخان العظيم ؟.. هل هو رئيسهم ؟

★ ★ ★

« أنت في (زانادو) أيها المحارب .. حيث ينزع الغموض رداءه .. وتفتح الطلاسم أقفالها .. وتستحم عذارى الليل عاريا في دماء من ضلّوا سبيلهم وجاءوا هاهنا .. أنت في (زانادو) أرض الشؤم .. فاخضع للخان العظيم » ..

★ ★ ★

خضعت !.. خضعت !..

فلينته كل هذا !..

أنا لم أعد محاربًا ولا أدري أين أنا ..

لو كنت ـ حقًا ـ خانًا عظيمًا ، فالمفروض أن تعرف أنني لا أرغب سوى في المعرفة والفهم ..

لو كنت خانًا عظيمًا لجعلت مسوخك ينصرفون ..

لو كنت .....

وهذا حدث شيء مريع ...

★ ★ ★

www.liilas.com

ولكننى ـ برغم كل شيء ـ جائع !..

تذكرون أننى لم أتناول عشائى بعد ، وكنت أنتظر (هن ـ تشو ـ كان) حين يعود من السوق .. إذ جاء هذا الإعصار (جينغ ـ تشا) ليقلب الأمور رأسًا على عقب ..

لهذا وضعت المقلاة على الموقد وأذبت بها ملعقة سمن ، وكسرت بيضتين ..

ثم جلست أتلهم عشائى من المقلاة مباشرة ، على أن أعود إلى المستشفى على الفور بمجرد أن تفرس كلابين (كما يقول الإنجليز) ..

أنا لست بارد الأعصاب كما تظنون ، ولست قاسيًا .. أنا ـ فقط ـ جائع ولن أؤدى أحدًا بشهمى كما لن أفيده بجوعى ..

ثم إننى أشعلت لفافة تبغ وطفقت أتأمل الحلقات الرمادية المتصاعدة ..

إذن حصل (جينغ ـ تشا) على الكتاب .. وحمله معه إلى .....

إلى أين ؟..

هل عاد به للقرن الخامس عشر ؟.. ولكن كيف يستفيد به هناك ؟.. أكاد أقسم إنه نفذ أنفاسه أو كاد إثر ضربات الكاهن الأخير الفعالة على مواضع هذه الـ (كارما) أو الـ (صارما) لا أذكر اسمها .....

تبًا لك يا (هن ـ تشو ـ كان) !..

كيف تسمح لنفسك بالإصابة بالغيبوبة فى لحظات هامة كهذه ؟.. أنت الوحيد الذى كان يملك تفسير ما حدث ..

وهنا دق جرس الهاتف فى إلحاح ..

نهضت لأرد متوقعًا أن أسمع الخير إياه .. فسمعت صوتًا ملهوفًا :

ـ د . (رفعت) ؟.. أنا (مايو) ..

ـ اختصر يا صديقى .. اختصر ..

ـ المريض الذى أحضرته لنا ..

ابتلعت ريقى وتحسست صدرى ضاغطًا قلبى فى موضعه حتى لا يسقط إلى قدمى .. وتمتمت :

ـ هل هو ..... ؟

ـ كلا .. ولكن .. أشياء غريبة جدًا تحدث .. هلا جئت لنا الآن ؟

وضعت سماعة الهاتف وأنا ألعن فى سرى ..

ستكون ليلة أسود من قلب كفار (قريش) جميعًا ..

★ ★ ★

على الشاشة الخاصة بجهاز (المونيتور) أخذت النبضات الكهربية تتوالب كالبراغيث الخضراء ، فى حين يشير مؤشر النبض إلى مائتى نبضة فى الدقيقة ..

كان هناك عدد لا بأس به من المناظير والمعاطف البيضاء حولى ..

وسألنى أحدهم وهو يتثاءب :

ـ ما سر هذا ؟

ـ كنت أظنكم تعرفون الإجابة ..

ـ إن انضغط بنزايد كفلك .. وحركة الحدقة سريعة جدًا ..

قال د . (منير) وهو يفتح جفنى (هن ـ تشو ـ كان) متأملًا حدقتى العينين اللتين تتحركان كيفما تدول :

ـ هل تريدون رأيى ؟.. يخيل لى أن هذا شبيه بطور النوم المتناقض (بارادوكس) الذى تبدأ فيه الأحلام ..

قلت ولما أحك عنقى :

ـ هل تعنى أنه يحلم فى غيبوبته ؟..

ـ بالتأكيد .. وأظنه يحلم بالكوابيس ..

كنت أفكر فى كل هذا شارد الذهن .. حين دنت منى إحدى مشرفات التمريض وجذبت كمى قائلة فى حزم ، وهى تمسك بمنظار كنيب المنظر :

ـ تأمين العناية المركزة للاثمانة جنيه !..

ـ فيما بعد .. فيما بعد .. تمنيت أن أجلب مالًا ..

ثم نظرت إلى الفريق الطبى الواقف متسائلًا :

ـ لماذا لا تجرون له غسيلًا كلويًا يزيل آثار هذا السم من عروقه ..

ـ سنحاول ذلك .. لكننا لا نضمن أى نجاح ..

وهنا شعرت بالمشرفة تجذب كمى مكررة فى حزم :

ـ لا تنس الثلاثمائة جنيه صباح غد وإلا طردناه !

صعد الدم إلى رأسى :

ـ لن أنسى عنيك اللعنة .. ولكن دعينى أكمل جملة واحدة !..

ثم قلت وقد تذكرت شيئًا .. موجهًا كلامى إلى د. (منير) :

ـ إن عندى كمية نقية من هذا السم .. وأقوم بتحليلها باكرًا فى مركز البحوث ، فلربما أفادتنا هذا ..

سأحاول أن أختصر فلا أحكى لقائى العسير مع رجال الشرطة ووكيل النيابة الشاب المتحمس ، الذين انقضوا علىّ من كل صوب يحاولون فهم ما كان هذا الأسيوى يفعله فى شقتى .. وأين جواز سفره ؟.. ولماذا لم أتصل بسفارته ؟.. وما سر المشادة التى حدثت على سلالم البناية ؟.. إلخ .. إلخ ..

www.ibtesama.com

أنا أحب هؤلاء الرجال لأنهم يؤدون واجبهم ، لكنى أجد من الصبر نوعًا أن أحدثهم عن (النافارای) و (المادبانا) .. لهذا اختصرت أكثر التفاصيل إلى أن صارت القصة مجرد قصة صديق أسيوى عرفته بالصدفة .. ودعوته إلى دارى حين هاجمنا بعض الأوغاد لأسباب لا أعرفها ..

وجاء الثانى من سفارة (جمهورية الصين الشعبية) ليريا الفتى ويتأكدا من أنه ليس من رعايا دولتهما .. هذا بالطبع قبل أن تبدأ وفود (ألبانيا) و (اليابان) و (ماليزيا) و (الفلبين) و (نيبال) و (منشوريا) هذا بإذن الله ..

والنتيجة هى ـ حتمًا ـ خراب بيتى بشكل أو بآخر ..

إن السفر عبر الزمان والمكان جميل .. لكنه ليس مستحبًا فى زمن تقيده جوازات السفر ، ويكون فيه على كل إنسان أن يثبت أنه (شخص ما) وإلا فالويل له .. هو ومن أخفاه عنده !

★ ★ ★

الرابعة بعد منتصف الليل ..

- عدت بسيارتى إلى دارى .. إنها المرة الثانية فى هذه الليلة التى لا تنتهى ..

أحتاج إلى ثمانى ساعات فى فراشى قبل أن أعود أنا أنا .. لكن هيهات ! ليس هذا الترف حقًا لأمثالى ..

وعند شقة الأستاذ (زكريا) تذكرت ..

الكرة الشوكية .. لقد سقطت منى ها هنا حين أرحت رأس (هن ـ تشو) على ركبتى .. لكنها لم تعد هنالك ..

أريدها .. فهى لم تزل تحوى بعض تلك المادة المشئومة ، وأملى كبير فى أن أحللها وأجد الترياق ..

ولكن ..

أين هى ..

من أخذها ؟.. ومتى ؟.. ولماذا ؟..

★ ★ ★

العاشرة – صباح اليوم الرابع من (جونو) ..

بدأت الأرض تحتشد ..

الغبار الأحمر يتعالى ويتعالى أمام عيني (هن – تشو – كان) الذاهلتين ..

لكن الصوت كان مستمرًا :

« اخضع أيها المحارب !.. اخضع ! » ..

لم يكن قد فهم بعد .. لكنه أيقن أن هذا الغبار الأحمر كائن حيّ !..

كائن حيّ غاضب .. ويهاجمه !..

« اخضع أيها المحارب !.. اخضع ! » ..

حتى بالنسبة لمحارب (تافارى) – سيد جهازه العصبي – كان هذا كثيرًا جدًا ، وشعر (هن – تشو – كان) أن وعيه يتسرب منه ..

« اخضع أيها المحارب !.. اخضع ! » ..

تحفّز الفتى في وقفته .. أين ذهب ثلاثة الفرسان ؟.. إنهم يحيطون به من ثلاث نواح ، على حين يلتقي التل الأحمر الوليد الناحية الرابعة ..

لقد أحكموا حصاره فلا جدوى من الحركات البهلوانية ..

وهنا سمع صوتًا هائلًا يصرخ :

– « الموت للخائن ! » ..

وبرز رجلان يمتطيان ما يشبه الخيول البيض .. لكن هذه الخيول لم تكن ذات أقدام .. بل هي أقرب إلى أطياف بيضاء تحوم فوق الرمال مرفرفة بجناحين سميكين كأجنحة الوطاويط ..

ورأى أول الرجلين ..

كان عارى الجذع يكشف عن عضلات هائلة (تلتفها قرمزية اللون) ، وكان رأسه يتربع على كتفيه كبيضة عملاقة بلا تجاويف ولا معالم !..

وفي يده كان لسان من الوميض – كالكهرباء – يرسل شرارًا في كل اتجاه ..

وإذا الرجل يصيح صيحة واحدة ، ويقذف هذا اللسان على أحد الفرسان ..

عندئذ .. تصاعد الشرر الأزرق في كل صوب ..

ولمح (هن – تشو – كان) الفارس يتقحّم .. يتلمّس .. يتضاءل في دروعه ..

ثم يتحول – وما يركبه – إلى غبار فوسفوري أخضر ..

إذن فهذان الرجلان – مهما كان من غرابتهما – صديقان ..

ورأى (هن – تشو – كان) ظل الغبار الأحمر يقوص ..

www.liilas.com

لم يرحف نحو الرجلين ليقسف الأرض من تحتهما أو يعرقل جواديهما ..

لكن الخيول ارتفعت برشاقة فوق التل ..

ولسعة برق قاتلة أصابت فارسًا آخر فتفحم ..

حاول (هن ـ تشو ـ كان) أن يركض ليلحق بالرجلين المتقدمين ، لكن الفارس الثالث الباقي على قيد الحياة اعترض طريقه ..

يا للهول !.. يا للفضاعة !..

كابوس يركب كابوسًا وهو يطل عليه من أعلى دون رأس ..

ولشدة الذعر أدرك (هن ـ تشو ـ كان) أن هذه الزخارف التي تملأ حلة الفارس لم تكن سوى مئات العيون الجاحظة المحمرة كلها ترمقه في مقت وتركيز !..

أما ما حسبه حزامًا مزخرفًا فلم يك سوى فم كبير فاغر تحفه الأنياب القاطعة المشرعة .. ثم يتوسط بطن هذا المسخ !..

ومن ذراع المسخ اندفعت أجسام أسطوانية ـ كأنابيب دقيقة ـ فاصدة وجه (هن ـ تشو ـ كان) ..

عندئذ أدرك هذا في طرفة ما يحدث ..

لقد كان الكائن قادرًا على تحريك أوردته ليمتص بها دماء الأعداء !..

أي كابوس هذا ؟!..

هناك حيث وقف في كون يسوده الظلام ، على رمال حمراء دموية براقة ، يواجه مسوخًا بلا وجه ، ويدافع عنه رجلان بركبان حصانين مجنحين ..

هناك أدرك أنه يهلوس .. حتمًا يهلوس ..

لابد أن هناك من دس له أفيونًا أو فطرًا هنديًا في طعامه ..

لكن الوريد ثبت نفسه على ذراعه ، فكان الألم مريعًا ..

إن هذا الكابوس يؤلم إذن ..

ولكن كيف يؤذيك شيء لا تقدر على لمسه ؟.. مستحيل !..

لم تطل حيرته لأن أحد الرجلين المتقدمين مر بجوارهما ..

فانطلق لسانًا من البرق نحو الفارس المسوخي تمامًا ..

وسقط (هن ـ تشو ـ كان) على الأرض الحمراء يرتجف ..

لقد ساد الصمت .. واختفى الجيل الأحمر ..

وهنا وجد ثلاثة وطاويط خضراء اللون تحوم في دوائر متصلة صاعدة لأعلى .. لأعلى وهي تصدر صريرًا مروعًا .. حتى تلاشت ..

أدرك ـ دون جهد ـ أنها ترمز لأرواح الفرسان الثلاثة ..

وحين عاد قلبه ينبض ..

وحين استطاع أن يقف على قدميه ..

وحين وجدت الحروف سبيلها إلى لسانه الجاف ..
كان أول ما قاله هو :
ـ أين أنا ؟
ـ أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تترك الأقدام آثار خطاها فوق الرمال الحمراء ..
ـ أين أنا ؟
ـ أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث تقلى الحقائق وتحيا الأحلام ..
ـ أين أنا ؟
ـ أنت في (زانادو) أيها المحارب حيث الرجال رجال حقا ..
كان الكلام يتردد في ذهنه دون أن يدرك مصدره .. هو نوع من (التخاطر) الذي تعلمه في (التبت) إذن .. ولهذا لم تكن ثمة صعوبات في الترجمة ..
ـ ومن أنتم ؟
ـ نحن رجلان من (الراموس) أشد أعداء الخان ..
رفع رأسه نحو السماء فرأى الخطوط الزرقاء قد ازدادت عددا حتى ملأت أكثرها .. أدرك ـ في هلع ـ أن لحظة ما آتية حين لا يصير في السماء موضع لخط آخر وتستحيل كلها زرقاء ..
أما الأكثر رعبا فهو مصدر الخطوط ..

لقد كان هذا عنكبوتا عملاقا قرمزي اللون يثبت أقدامه الثمانية إلى قبة السماء عاكفا على إفراز المزيد من الخطوط الزرقاء ..
ـ أعنكبوتا هائل الحجم أرى ؟
ـ أنت تراه كذا .. ونحن نراه شيئا آخر !
ـ مستحيل !.. ألا تريان نفس ما أراه ؟
ـ أنت في (زانادو) حيث كوابيسك حقيقية .. وكوابيسك ليست كوابيسنا ..
عندئذ بدأ يفهم ..
إن مشهد الفرسان الثلاثة عديمي الرءوس كان كابوسا يطارده في صباه .. بنفس التفاصيل تقريبا ..

* * *

يومها نهضت من الفراش مولولا صارخا :
ـ « الفرسان بلا رءوس !.. بلا رءوس ! »
تقلب الأخ (ميانج) في فراشه الأرضي الملاصق لك ووضع يده على جبينك وهمهم :
ـ لا تخف أيها (الزهرة الزرقاء) .. لا تخف .. إن الشياطين لا تجد ثغرة إلى النفوس الشجاعة إلا حين يقلقها الكرى ..
ـ « لقد فقت الذعر جسارتي »..

لقد كان حل عكسوا عملاقة فرمزى اللون يمت أقدامه الصغيرة إلى قبة السماء عاكفًا على إقرار المزيد من خطوط الزرقاء

ـ ، فى الغد ـ حين تتسربل بأغطيتك ـ فتتقسم تنفسك إنك لن تخاف .. ولئن فغر الخطر فاه فأدخل رأسك فيه .. لئن غزا الخطر قلبك فاغز قلبه .. لئن جرى الخطر خلفك فتتوقف .. انتظره ؟ ، ..

★ ★ ★

إذن لم يكن كل ما رأيته سوى انعكاس لكابوس قديم .. كابوس منسى منذ الصبا ..

ـ لكنكما رأيتما الفرسان مثلى ؟

هتف أحد الفارسين وهو يدور بحصانه المجنح حول الفتى :

ـ أنت رأيتهم فرسانا ، أما أنا فرأيتهم ثعبانا سيفية الأسنان تحاصرك .. وأخى رآهم عربات من اللهب تحاول حرقك .. ، أنت فى (زالادو) أيها المحارب ، فلا تثق بعينيك .. ثق بغريزتك ..

ـ وهل ـ حقًا ـ الغبار الذى تقف عليه أحمر اللون ؟.. والسماء سوداء تقطعها خطوط من الأزرق ؟.. وهل لونكما فرمزى ووجهكما بلا ملامح ؟

ـ أنت فى (زالادو) أيها المحارب .. أنا أراك تنتوى كأفعى .. وأراك فى بحر من المياه الخضراء .. ، أخى يراك صنمًا حجريًا تحيط به النيران .. لا تثق بعينيك أيها المحارب .. ثق بإدراكك ..

- ومن هو الخان العظيم ؟
- هو كل شيء مفزع مقيت في هذا العالم .. الخان هو المرض والوهن والجوع ..
الخان هو الألم والقسوة والجبن ..
- وهؤلاء .. هؤلاء الفرسان أو النمور أو كريات اللهب .. هم جنوده ؟
- بل هم هو ذاته ..!.. إن الخان هو كل شيء كريه في هذا العالم ..
- وأنتم ؟.. ثوار عليه ؟..
- نحن متمردون على الانصياع في ذات الشر ..
وهنا ارتجفت شفتا الفتى .. جاء وقت أكثر الأسئلة قسوة :
- كيف جئت أنا إلى هذا العالم ؟.. ولماذا ؟.. وكيف أعود منه ؟.. ثم - أرجوكما أن تسامحاني - هل أنا ميت في دنيا الأشباح ؟
بغتة دوى الصوت في ذهنه :
- لا أيها المحارب .. أنت لم تمت .. لكنك تحتاج لكل فنون (النافاراي) كي تعود لعالمك ..
وسنقول لك كيف ..
.....

★ ★ ★

أخيرًا - بعد بحث دام ربع الساعة - وجدت ضالتي ..
كانت الكرة الشوكية قد سقطت عبر (الدرابزين) إلى بئر السلم السفلي ..
وعلى ضوء لهيب قداحتي وجدتها .. ، ولففتها في منديل صغير ..
أما سبب سقوطها هناك فيسيط جدًا ..
قط صغير تعس الحظ متكور الطالع صعد في سلم الدار ووجد الكرة ، واعتبرها - ذلك المعتوه - كرة خيط رخيصة .. عابثها بوسادة قدمه فجرحته .. ثم سقطت إلى حيث وجدتها أنا ..
وبالطبع كانت جثة القط ممددة إلى جوار أحد الأبواب الموصدة مما جعلني أفهم القصة كلها ..
الطريف هنا أنه كان حيًا يتنفس ، لكنه مصاب بذات الغيبوبة المشئومة مما دلني على أن هذا السم ليس معتمدًا على الجرعة .. فالجرعة التي تخدر رجلًا ناضجًا مثل (هن - تشو - كان) لابد أن تقتل قطًا صغيرًا لو كان هذا اسمًا مألوفًا ..

على كل حال لقد منحنا هذا القط فرصة أخرى ..

سيكون نموذجًا حيوانيًا نجرب عليه أى علاج قبل أن نعطيه للكاهن الأخير .. وربما احتجنا إلى تشريحه لمعرفة ما دهاه ..

احتضنته فى رفق صاعدًا إلى شقتى ، وأرحت جسده فى علبة من الورق المقوى ابتعت فيها حذائى الأخير .. ثم انتزعت حذائى وارتميت على الفراش بكامل ثيابى ، ولا داعى لأن تؤكد لى أن الفراش لا يعلو ويهبط لأننى واثق أنه كذلك .. أكاد أقسم إنه كذلك .....

أنا تعبك .. تعبك .....

★ ★ ★

ريفاااااااات ! ..

من أنت ؟..

ألا تعرفنى ؟.. أنا (الزهرة الزرقاء) .. (هن ـ تشو ـ كان) .. الأخرس .. الكاهن الأخير .. كل هذه الأسماء هى أنا ..

أعرفك .. لكننى لا أصدق أنك هنا ..

بل يجب أن تصدقنى يا ريفاااااات !.. لا يوجد وقت نضيعه ..

ماذا قد أصابك يا (هن ـ تشو ـ كان) ؟

إنها لعنة (السيرجانثا) .. المنفى الإجبارى لأعداء (الثاقارانى) .. (جينغ ـ تشا) عرف السر .. عرفه من كتاب (شوكارا) وتمكن من تحضير تعويذة (السيرجانثا) من جذور أشجار (السرو) ..

ولقد أعد لى الكرة الشوكية وملأها بالمسائل كى يرسلنى ـ إذا ما هزم أمامى ـ إلى أرض المنفى حيث لا أموت ولا أحيا ..

لكن الكتاب كان معك يا (هن ـ تشو ـ كان) طيلة الوقت ..

ليس بتلك الصفحة المشئومة يا (ريفاااات) .. إن كل صفحة من كتاب (الشوكارا) تحوى سرًا مرعبًا .. وقد كانت الصفحة تحوى أسلوب (شانكين) وأسلوب (سيرجانثا) معًا .. الصفحة التى تركتها فى الدير حين جئت إلى عالمكم ..

(ريفاااات) !.. يجب أن تفعل شيئًا .....

وماذا أفعل أيها الكاهن الأخير ؟.. أخبرنى بأسلوب مقاومة هذا السحر ..

للأسف أنا لا أعرفه .. لكنك حكيم وتستطيع أن تجده .. فى كتاب (الشوكارا) !..

أنت لا تفهم أيها الكاهن الأخير .. الكتاب لم يعد معى ..

أخذه (جينغ ـ تشا) إلى عالم ناء لا أعرفه .. لم يكن قد قضى نحبه حين رحلت أنت .. دعك من أن الكتاب مكتوب بلغة (التبت) القديمة .. ، وفهم كلماته مستحيل ..

ـ ماذا تقول ؟.. الكتاب مع (جينغ ـ تشا) ؟.. إذن الويل ثم الويل !..

الويل لكل البلدان في كل الأزمان .. إن من يملك (الشوكارا) يستطيع حكم العالم .. ولقد كان الكتاب في يد (النافاراي) قرونا فاستخدموه بحكمة واقتصاد .. أما اليوم .. فقد صنعوا للتمس يايا في مسكن الدجاج !..

ـ وماذا أفعل إذن يا (هن ـ تشو ـ كان) ؟..

ـ لا أدري يا (ريفاااات) .. لكنني أعرف أن (جينغ ـ تشا) سيبحث عني ويحاول تدميري .. لن يهدأ له بال حتى يتم تدميري ..

أنا آخر (نافاراي) .. ومهما كان فأنا مازلت حيا وقادرا على الفرار من منقاي لمواجهته .. لهذا سيحاول أن يجدني وأن يقتلني ..

سأحاول أن أخاطبك بروحي يا (ريفاااات) كلما أسلمت

روحك للجة النعاس لأنها تكون شفافة كمياه (اليانج تسي) إبان الفيضان ..

احرص على النوم أكثر ساعات النهار ..

وعندئذ سأخبرك بما أبتغي من أرض الواقع ..

ـ والآن وداعا يا (ريفاااات) !..

ـ وداعا (هن ـ تشو ـ كان) !..

ـ وداعا .....

* * *

وكنا صحوت من نومي غارقا في العرق البارد ..

الأرقام الفوسفورية على ميناء الساعة تشير إلى السادسة صباحا ..

صوت شقشقة الطيور بالخارج تتبادل السباب الموسيقي ..

هل حقا كان كل هذا حلما ؟..

مستحيل .. لم أر حلما بكل هذا الوضوح والشفافية في حياتي .. ولم أر حلما بهذا الترابط المنطقي ..

أنا واثق من أنني تحولت خلال نومي إلى جهاز إرسال واستقبال لاسلكي لموجات أثيرية بثها لي الكاهن الأخير من مكان ما ..

على كل حال سأتبع أسلوب (فرويد) الشهير ..

أمسكت بالقلم و (الأجندة) وبخط لا يُقرأ شخبطت ملخصًا سريعًا لكل ما قيل وما سمعت في منامي كي أتذكره حين أصحو صباحًا ..

وألقيت برأسي على الوسادة - كالصخرة - لأواصل نومًا بلا أحلام ..

حتى الثامنة صباحًا حين ...

حين وثبت جثة القط من الصندوق .....

★ ★ ★

في (زانادو) لا توجد أعوام ..

الحياة كلها عام واحد طويل .. فلم يتكرر شهر واحد منذ وُجد (زانادو) ..

أما عن اسم كل شهر فوليد الخاطر .. يمكنك أن تسميه (جورو) أو (جاسكا) أو (هسبراد) أو حتى (ميكي ماوس) .. لا فارق هناك ..

الأدهى أن كل شخص يملك إنهاء شهره بنفسه وفي اللحظة التي يخطر له فيها ذلك .. لذلك قد يحوي اليوم الواحد عشرة شهور !..

الخلاصة : لا وجود لزمن موحد في (زانادو) ..

ويعتمد قياس ساعات النهار على عدد الخطوط الزرقاء التي ينسجها في السماء ذلك العنكبوت العملاق (أو على الأقل هذا ما رآه الكاهن الأخير) ..

فيبدأ اليوم بخط واحد وينتهي بالسماء وقد صارت سجادة زرقاء ..

★ ★ ★

www.liilas.com

معسكر الثوار ..

ليس معسكرًا بالمعنى المتفق عليه .. فهناك بعض النيران الخضراء مشتعلة فى الرمال ، وهناك نهر قرمزى اللون يترقرق فوق الرءوس .. وهناك فيول بيضاء محلقة بلا أقدام .. وهناك مخ كبير بحجم الجبل تذوب أطرافه ، وتتلقى مآقته العضوية طيلة الوقت ..

ومن حين لآخر تلتمع ومضة كهربية عبر نسيج المخ فترد عليها ومضات أخرى ويغرق المكان فى ضوء أحمر عجيب ..

وكان هناك عدد من الفرسان ذوى الرءوس الشبيهة بالبيض والأجسام القرمزية الملتوية ، يروحون هنا وهناك ، يتلمسون المخ العملاق ، فتضىء رءوسهم بالضوء الأحمر .. ثم ينفصلون ويهيمون من جديد ..

ولم يحاول (هن ـ تشو ـ كان) إقناع نفسه أنه يحلم .. فهو يعرف تمامًا أنه ما من عقل بشرى قادر على الحلم بكل هذا ..

★ ★ ★

أنت فى (زانادو) أيها المحارب حيث تفنى الحقائق وتحيا الأحلام ..

★ ★ ★

لم يكن يحلم ..

ويقطرته الصافية أدرك أن هذا المخ العملاق هو زعيم الثوار ..

دنا منه ببطء وترو .. ثم توقف على بعد أمتار ، وأجال حين رأى المادة اللزجة السائلة تنساب لتحيط بقدميه كأنها تتفحصهما .. ثم :

ـ أنت نبيل أيها المحارب .. لك روح نسر وقلب نمر ..

لم يدر بهويرة .. كان الصوت ينساب بلزوجة فى روحه :

ـ يا لدهائك الحارة الفنية !.. لكم يتوالب قلبك فى صدرك !.. أنت خالف أيها المحارب !

وبدأت المادة اللزجة القذرة تتسلق ساقه فى بطء .. فحص (هن ـ تشو ـ كان) محاولًا أن يبدو حازمًا لا خائفًا :

ـ فلا شرحت لى كل هذا ؟.. تبدو لى أكثرهم علمًا ..

اندلع صوت فحيح مروّع لثوان أدرك القتى بعدها أن هذا الشىء يضحك !

ـ هيه هيه هاااااف !.. إنك أيضًا مهامل أيها المحارب .. تستطيع أن تدعونى (الأب) .. وأنت هنا ضيفى .. وبالتالى أنت ابنى ..

أحس الفتى بقشعريرة حاول أن يكتمها عن هذا الوحش قارئ الأفكار .. ويل لك أيها (الزهرة الزرقاء) .. أنت فى عالم يبدو فيه الخير هكذا .. فكيف يكون الشر إذن ؟.. وإذا كان زعيم الثوار مرحبًا إلى هذا الحد .. فكيف يكون الخان الذى ثار عليه !!..

كان (الأب) قد تلقى هذا الخاطر بانفعال لأنه أجاب فى نوبة بصوته الأزرق الجشع كماء يتسرب عبر ثقب فى الصخور :

ـ إن الخان هو كل شىء شرير فى هذا العالم .. أنت لا تستطيع فهم ذلك .. لكنه صحيح .. الخان هو النار التى تحرقك والرمال التى تبتلعك والسهم الذى سيغيب فى صدرك .. ، ونحن (الراموس) نحاول أن نظل بمنأى عن سلطانه وألا نندمج فى ذاته الكريهة ..

ـ ولكن كيف ؟

ـ بالإرادة .. نحن مصممون على التفرد ومقاومة كل كوابيسه وأعاصيره .. وطالما لم تستسلم ستظل الحرب سجالاً ، وتظل نحن نعيش حياة الخطر .. أنت كنت ستستسلم له أيها الصحارب ، وكانت الرمال الحمراء تبتلعك للأبد لولا أن أرسلت لك اثنين من أفضل أبنائى كى يعززا إرادتك وقدرتك على الصمود ..

كانت العادة الزرقاء قد عقد عنقه الآن .. لكنه قاوم الغثيان وهمس :

ـ وماذا أتى بى هنا ؟

ـ هاااااف ! هاااااف !.. قليلون هم (النافارا ى) الذين جاءوا لعالمنا بعد أن تسمموا بتعويذة (السيرجانتا) .. لكن أحدًا منهم لم يعد لعالم الواقع قط.. أنت آخر شيوفى وستظل هنا تقاوم الخان معنا أو تفنى فى ذاته القذرة ..

ـ إذن أنا لم أمت ..

ـ بالطبع لا .. أنت فى كابوس لن ينتهى إلا بالنصر أو بهلاكك الحقيقى فى عالم الواقع ..

ـ وماذا تريدون منى ؟

انساب الصوت فى ازدراء :

ـ أنت الواقع الوحيد فى (زاناذو) أما الباقون فأوهام .. ولهذا يمكنك أن تنجح فيما لا ينجح فيه الوهم ..

وهنا تمسح شىء فى قدم (هن ـ تشو ـ كان) فأجفل .. ثم دقق النظر ..

فإذا به قط .. قط صغير رمادى اللون ميرقش يبقع سوداء .. كان خائفًا مرتجفًا .. يموء بأسلوب يمزق نياط القلوب ..

وهنا تسمع شيء في قدم (هن ـ تشو ـ كان) فأنحنى .. لتجد قط

الشقة .. فإذا به قطٌ .. كان خائفًا مرتجفًا

انحنى (هن ـ تشو ـ كان) لأسفل وحمل القط الصغير بين أصابعه وتأمله في لهفة .. إنها أول مرة يرى فيها كائنًا طبيعيًا منذ وطأ هذا الكابوس ..

وتساءل بحيرة :

ـ ما هذا القط ؟

ـ أنت تراه قطًا وأنا أراه حزمة من الدخان .. لا يهم .. المهم أنه وافد جديد إلى (زاندو) ، ولعله أصيب بلعنة (السيرجانتا) هو الآخر ..

ليكونن هذا أخاك إذن ..

استجمع (هن ـ تشو ـ كان) أعصابه .. كانت العادة المزعجة قد انسحبت بعيدًا عن عنقه لحسن الحظ ، فهدأ بالاً .. وقال :

ـ أعرف أن (جينغ ـ تشا) أرسلني إلى هنا .. فما هدفه ؟.. لماذا لم يقتلني فورًا وكان ذلك باستطاعته ..

ـ الانتقام هو ما أراده .. والانتقام هو ما ناله .. الموت راحة لا يريدها لك ، و (السيرجانتا) أسلوب تعذيب شيطاني قلما يجد شريرٌ خيرًا منه ..

ـ اللعنة !.. سأعود ولأنهكه الويل .. أقسم على هذا بروح أجدادي ..

إزداد غليان المسخ العملاق ، وتزايد الضوء الأحمر المنبعث منه إلى حد جعل (هن ـ تشو ـ كان) يدارى عينيه ..

ـ ماذا حدث أيها الأب ؟..

ـ الخان !.. إنه راض إلى حد كبير .. أشعر بهذا وأحسه .. إن هذا لا يرضيني ..

وهنا حدث شيء جعل الكاهن الأخير ينتفض ..

ورثب القط من يده فى هياج مفاجئ ..

★ ★ ★

للحظة توقف قلبي عن العمل . ومعه توقفت كل وظائفي الحيوية ..

لقد صحوت على صوت مواء خفيف ثم فتحت عيني لأرى القط الصغير يثب ـ وهو مرتخي الجسد كما كان ـ من صندوقه الورقي ..

وثبت أنا الآخر من الفراش ، ووقفت على بعد متر من موضعه غير متجاسر على الاقتراب أكثر .. فذئب يتطلع في فضول ورعب إلى نار تتقاضى ..

كان يختلج .. يختلج كنائم يرى كابوسًا ..

دام هذا بضع ثوان ثم عاد لغيبوبته الهادئة المنتظمة ..

وفي هذه المرة كان عندي الدليل المادي الذي لا يُدحض على أنني لا أهذي أو أحلم ..

فجثة القط قد كانت بالطبع ولم تعد فيها ..

احتجت لبضع دقائق حتى أتمالك نفسي وألتقط الجسد الصغير وأعيده إلى الصندوق .. وعلى الرغم مني غسلت يدي مرارًا بالصابون والماء فالكحول ..

ثم إنني ارتديت ثيابي ، ودسست الكرة الشوكية

www.liilas.com

والصندوق فى ورقة جريدة .. ونزلت لأركب سيارتى حاملاً هذين الشيئين العجيبين .. قاصداً المستشفى لأرى ما حدث هناك ..

أتعشم ألا أجد فراشا خاويا أو جثة مغطاة بملاءة بيضاء ..

* * *

وقفت أرمق الفتى الممدد وسط خراطيم المحاليل وخراطيم الأكسجين وخراطيم البول .. خيل إلى أننى أرى أخطبوطا أو كائنا فضائيا ..

ولاحظت أن الطبيب النوبتجى عاكف على تثبيت تلك الخراطيم بالشريط اللاصق مما دلنى على أنها كانت منزوعة ..

سألته فى فتور عما إذا كان المريض قد تحرك ..

فأجاب :

ـ عمليًا لم يتحرك بل وثب من فراشه منتزعًا كل شىء .. ثم هجم مرة أخرى ..

ـ غريب !..

ـ مهما كان نوع هذه الغيبوبة فهى لا تجلب له السعادة ..

هززت كتفى مؤمنًا .. وتأملت الفتى ..

أنت الوحيد ـ يا (عن ـ تفو ـ كان) ـ الذى يعرف معنى ما يحدث لك ..

وأنت الوحيد الذى يعرف كيفية إنقاذك .. لكنى ـ أعدك ـ لن أيأس ..

وسأظل معك حتى يطن الأطباء توقف تنفسك ويحصلون على رسم قلب ورسم مخ مسطحين .. ثالوث الموت الشهير .. عندئذ ـ أعدك ـ سأبكى قليلا وأشعر بالكآبة إلى حد ما .. وأكتب قصتك .. ثم أنسى الأمر برمته !

ـ هل أحضرت الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة ؟!

اللعنة !.. مشرقة التمريض اللحوح تطاردنى !..

إن هذه المرأة لا تيأس .. نظرت لها نظرة صارمة فغابتها بنظرة وقحة ..

ثم إننى فارقتها متجهًا إلى كلية الصيدلة لأعرض ما معى على د . (صبحى) ـ ومن خبره ! ـ ليتحسس طبيعة السم ..

قال لى فى تعاسة (فلم يكن قد أفاق من أثر النعاس بعد) :

ـ تحليل كروماتوجرافى جديد ؟.. ألا تفعل شيئًا سوى جمع السوائل المريبة وإحضارها لى لأعرف كنهها ؟

ـ بلى ..

قلتها وأنا أشعل لفافة تبغ .. وأضع الكرة الشوكية على النضد .. وأردفت :

ـ لو كنت أعرف سبيلاً آخر لاختفته .. لكن الحذر لأن هذه الأشواك قاتلة .. كذا !.. سأعتصرها بالجفت فى أنبوب اختبار كما تحلب الأفاعى .. هيه !.. سأقوم بهذا العمل لك .. فقط ناولنى أنبوبا ..

وملأت له نصف الأنبوب بالمادة الخضراء .. ثم ألقيت بالكرة الشوكية الفارغة فى الفرن المعلاق الذى يحفظون فيه الأوانى .. لا أريد ضحايا آخرين لهذه الكرة .. يكفيها راهب (نافراى) وقط لهذا اليوم ..

علق وعد بالإسراع فى العمل فارقته ، عائدا إلى المستشفى عساى أجد شيئاً جديداً .. لكنى لم أدخلها ..

واستندت إلى السور وأخرجت مفكرتى لأستعيد ـ على ضوء الصباح ويقظتى ـ ما قاله لى (هن ـ تشو ـ كان) فى الحلم .. أو الرسالة التى أراد إيصالها لى ..

لخصت ما قاله لى فى بضع نقاط :

١ ـ هذا الشىء الذى يحدث اسمه (سيرجاتنا) .

٢ ـ هو مذكور بالتفصيل الممل فى كتاب الـ (شوكارا) .

٣ ـ السم مستخلص من جذور نبات (السرو) .

٤ ـ (هن ـ تشو ـ كان) لا يعرف سبيل الشفاء .

٥ ـ (جينغ ـ تشا) وحد .

٦ ـ يجب أن أنام أكثر لأن (هن ـ تشو ـ كان) سيتصل بى فى أثناء النوم .

راقت لى ـ بشكل خاص ـ النصيحة الأخيرة ، لكن الوقت ليس مناسبا لكل هذا ..

ثمة أشياء ينبغى عملها أولا ..

انطلقت بسيارتى إلى سفارة (الصين الشعبية) ، وطلبت مقابلة الملحق الثقافى الخاص بها .. وقمت بتقديم ما يثبت شخصيتى ..

أدخلونى إلى مكتب مليء بصور (ماو ـ تسى ـ تونج) حاملا كتابه الأحمر الشهير ، وخلفه يجلس رجل أصلع الرأس متأنق صغير الحجم نزع منظاره حين رآنى ، ونهض مصافحا ثم دعانى للجلوس .. حاول أن يبدأ حملة الدعاية لبلاده ، لكنى كنت متعجلا للوصول إلى نتائج ..

سألته وأنا أجرع الشاى الأخضر الذى قدمه لى من (ترموس) صغير :

ـ كنت ـ بحكم عملى ـ أبحث عن كتابات عن الطب التقليدى الصينى ..

باللجليزية جيدة . تمتم :

ـ آها !.. طب تقليدى ؟.. تعنى (شعبى) ؟

ـ نعم .. نعم .. طب الأعشاب وخلافه ..

مرة أخرى نزع منظاره ليفحصني في ارتياب :

ـ آها !.. اهتمام مبكر ..!.. طب أعشاب في العاشرة صباحًا !.. يا له من حماس !

ـ إنها الهواية العلمية كما تعلمون ..

ثم قررت أن أكون أكثر وضوحًا :

ـ ما هي استخدامات جذور (السرو) في الطب التقليدي للصينيين ؟..

فرك كفيه في حيرة .. وتأمل رفًا يزخر بالكتب خلفه .. ثم غمغم :

ـ قلت إن اسمك البروفسور (رفعت) ؟.. حسن يا بروفسور ..

إن هذا الطب غير تقليدي ويحتاج لبحث مطول .. ثم إنني لن أعطيك كتابًا باللغة الصينية طبعًا .. يجب أن ألزم لك النص ..

وعلى كل .. هي هي ! (ضحكة متكلفة) .. يمكننا أن .. هي هي !.. تتصل بكم إذا كان .. هي هي !.. اتينا رقم هاتفكم المؤقر ..

تركت له رقم الهاتف .. وشكرته كثيرًا على لا شيء ..

وغادرت السفارة شاعرًا بالضياع .. غير عالم لأين أذهب وماذا أعمل ..

لقد اختل روتين حياتي فلم أعد أذكر كيف كنت أمضي أيامي قبل أن أبتلى بهذين (الناظار ان) اللذين دخلا حياتي لمجرد اهما ..

★ ★ ★

وهكذا يا إخوان لكم أن تراهنوا على أنني أمضيت ساعات يومي هنا وهناك ، ما بين المستشفى والبيت وأماكن أخرى لا أذكرها ..

ثم ـ وقد تذكرت نصيحة الفتى ـ عدت لداري عصرًا وارتميت في فراشي ، طالبًا النعاس لأكون (شفافًا كمياه اليانج ـ نسي إيان القيضان) على حد قول الفتى ..

والنعاس قط .. متى حاولت الإمساك به راوغك .. فإن تسللته جاء يتمسح في ساقيك .. وقد كنت أحاول الإمساك به ..

أذان المغرب .. لن أستطيع أن أزعم لنفسي أنني لم أسمعه .. نهضت للوضوء .. وصليت ثم أعدت لنفسي وجبة شنيعة المذاق جلست أتلهمها على عجل في المطبخ ..

وهنا دق جرس الهاتف فهرعت لأرد متوقعًا خبرًا هامًا .. ولكن ..

ـ مشرفة التمريض تؤكد أنك لم تدفع الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة !

- سحقًا !

وأطلقت سيلًا من السباب - المقذع للأسف - ثم أشعلت لفافة تبغ ..

وجلست أسعل وقد تذكرت أنها علبتي الثالثة لهذا اليوم .. لو لم أصب بسرطان الرئة أو الحنجرة أو كليهما خلال أسبوع لعدت نفسي محظوظًا ..

الحق أن هذا الاختراع المدمر قد تورط في حياتي إلى حد مرعب .. أدخن حين أفرح وأدخن حين أحزن .. أدخن حين أتهمك وأدخن حين أشكو الفراغ .. قبل الأكل وبعده .. قبل النوم وعند الاستيقاظ .. و ..... لكني بلا حيلة تقريبًا .. نقص السجائر يصيبني بشعور ممض من الوحشة ..

نعم .. الوحشة هي الكلمة التي تعبر عن هذا .....

الحق ألني ....

تررررن !.. تررررن !..

هذه المرة لا بد من شيء جديد ..

رفعت سماعة التليفون وقلبي يخفق في فمي كطبول (الزولو) :

- هالو !.. بروفسير (رفعت) ؟.. هذا (كيم - شانج - لي) المنحق الثقافي ...

- نعم .. نعم !.. قل لي ما تريد فورًا ..

لقد درست ما ذكر عن (السرو) في موسوعة طب الأعشاب الصيني .. وقد وجدت فقط أن أهالي (التبت) القدامى كانوا يستخدمون منه سمًا ذا خاصية تسبب الغيبوبة ..

- رائع ....!.. وهل ذكر شيئًا عن الترياق ؟

- بالطبع لا .. هي هي !.. هي مجرد فقرة من سطرين .. ظننت أنها تهمك ..

- الواقع أنها هامة حقًا .. لك جزيل شكري ..

صاح في حماس وقد بدأ يدرك كم هو رائع :

- أن (جمهورية الصين الشعبية) تتوجه لك شكرها على اهتمامك المشكور بتاريخها العظيم ، وإننا لندعوك إلى المزيد من التغلغل في ثورتنا الثقافية من أجل تحرير البروليتاريا البطلة من براثن الإمبريالية واليهود البرجوازية ... و .....

كليك !..

كنت قد وضعت سماعة الهاتف فالوقت ليس مناسبًا لدراسة الشيوعية ..

إن عندي الآن خيطًا لا بأس به ..

السم مستخلص من جذور (السرو) ويحدث غيبوبة خفيفة .. وقد ورد في كتب الطب الشعبي الصيني ..

هل يملك أساتذة علم السموم جوابًا على أسئلتي القلقة ؟..

* * *

العاشرة – ظهر اليوم السابق من (ماكاريس) ..

كانت كتلة الهلام العملاقة تنسحب بسرعة نحوهم .. مضيئة من الداخل .. شفافة .. لزجة .. سلسة الحركة إلى حد لا يصدق ..

حاول (الراموس) الفرار من طريقها ..

لكنها كانت تتقدم .. فتلتهم بمن يحاول الهرب وتبتلعه داخلها ..

عندئذ كانت ترى جسده المتلوى عبر المادة الشفافة .. ثم – بعد ثانية – ترى هيكله الداخلى وهو يذوب بالتدريج حتى يتلاشى نهائيًا ..

وتتضخم المادة أكثر فأكثر ..

إن قوام هذه الكتلة هو مئات الأجساد التى ذابت فيها منذ وُجدت ..

وها هى ذى الكتلة تقترب من الموضع الذى وقف فيه (الأب) و (هن – تشو – كان) ..

★ ★ ★

أنت فى (زانادو) حيث تحيا الظلال على ضياء الموتى .. وحيث يمزج الرعب لحمر القضاء لمن ضلوا السبيل ..

★ ★ ★

كان (الراموس) يتطوّر فيسقطون تحت الكتلة المريعة ..

وفى أغوار عقله سمع الفتى صوت (الأب) المتحشرج المريع يهتف :

– اللعنة !.. لقد أرسل الخان الأخطبوط !

– لكننى أرى أن هذه كتلة هلامية ليس إلا ..

– تأسى دائمًا أنك فى (زانادو) حيث يرى كل منا ما يخافه .. هناك خطر داهم وكلى !.. لاتستسلموا يا أولادى !.. قاوموا الاندماج !

لكن الخطر كان أقوى هذه المرة من أية مقاومة ..

الخيول المجنحة تصيح .. وتحاول الفرار ..

الأفق يتحول إلى مساحة شاسعة من الشعر الرمادى الأشهب كأنه ذئب عملاق يتكئ بصدره على الكون .. ، أما السماء فاستحالت لون أحمر داكن ..

وعند قدمى (هن – تشو – كان) صار القط نبتة صبار مذعورة !..

والدلع لسان من اللهب من منخرى الفتى ..

إنها نهلوسة مريعة تفوق كل ما رأى وسمع ..

لكنه لم يفقد إرادته بعد ..

– قاوم أيها المحارب .. قاوم .. إنها معركتك الأخيرة ..

فالها المخ العملاق وهو يرسل الشرر من حوله ، وسرعة نوباته تتضاعف ، وفقاقيع حمراء اللون تتزايد فوق نسيجه ..

★ ★ ★

عندما تغرب الشمس .. وتلتحف دماؤها ثوب المساء الأزرق ، عندئذ يبدأ فجر (الناقاراى) ..

★ ★ ★

وثب (هن ـ تشو ـ كان) في الهواء فوق الكتلة الهلامية .. دار نصف دورة ثم هبط على قدميه خلفها .. شعر بها تتراجع وتتمدد محاولة لمسه ..

فوثب في الهواء مكررًا ما قام به ..

لكنه تعثر هذه المرة .. تخلت التربة الحمراء عن قدميه .. ووجد نفسه على الأرض بينما المادة اللزجة تزحف فوق صدره قاصدة وجهه في جشع ..

★ ★ ★

« ولئن فر الخطر فاه فأدخل رأسك فيه .. لئن غزا الخطر قلبك فاغز قلبه .. لئن جرى الخطر خلفك فلتتوقف .. انتظره ! » ..

★ ★ ★

إنك بداخل الكتلة الآن .. ما أعسر التنفس !

لن تدعها تهزمك .. إنها وهم .. وأنت الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم .. يجب أن تقاوم .. لا تشعرها بالذعر ..

إرادتك التي تحمت بمضاء المذنبات وأبدية النجوم لن تنهزم ..

أنت (ناقاراى) .. و (الناقاراى) لن يموت داخل كتلة لزجة مقززة ..

بل سيموت بسيوف أعدائه أو رماحهم ..

قاوم الدوران .. تماسك .. اسبح نحو سطح الكتلة ..

ولكن .. هذا حق ..

إنها تتضاءل .. تتضاءل .. رأسك الآن خارجها .. ثم جاء كتفاك .. ثم بطنك .. أنت الآن حر ..

الكتلة تتكمش .. إنها الآن في حجم الصخرة .. حجم قبضة اليد ..

ثم .. هي ذي بحجم الدبوس .. لقد تلاشت تمامًا ..

لقد قهرتها إرادتك إذن ..

كنت ملقى على الرمال الحمراء تنهث .. العرق يغمر صدرك ..

www.kitab.com

أنت (نافراى) .. و (انلازاى) لن تموت داخل كتلة ترجمة مفرزة .. بل ستموت بسيوف أعدائه أو رماحهم .. فاوم اللويان ..

تماسك ..

لكنك كنت ترى المعسكر ومن تبقوا فيه من (رامورس) .. وترى المخ العملاق المسمى بالأب .. وقد كف عن إصدار الشرار ..

وسمعت الصوت المتحشرج يدوى فى أعصابك :

ـ لا بأس أيها المحارب .. لا بأس .. لقد فهمت قواعد الحرب .. وعرفت كيف تقاوم .. ومع محارب مثلك لن يكون على الخان سوى انتظار نهايته ..

ـ أنا (نافراى) .. و (نافراى) هذا أنا ..

هتف (هن ـ تشو ـ كان) وهو يلتقط أنفاسه المبعثرة ..

لن يزيد الأمر إلا على صراع إرادات .. وهو ـ الذى شق الصخر بكفه وحلق فوق الأرض ـ يعرف كيف يكون صراع الإرادات ..

* * *

أنت فى (زالادو) أيها المحارب حيث الرجال رجال حقا ..

* * *

وهنا تلمح فى الأفق خطرًا جديدًا ..

فمن شعيرات صدر التنين الأشهب التى اشتعلت فيها النيران ، رأى شيئًا يتحدر .. ببطء .. شيئًا هو أقرب لحلقة من النيران الخضراء ..

وإذا بالشرر يتطاير إلى الأرض .. ثم يدور حول نفسه قاصدًا موضعه ، والنيران تتبعثر منه في كل صوب وجذب ..

وحين تبين (هن ـ تشو ـ كان) حقيقة هذا الشرر أدرك أنه حلقة ثمانية .. حلقة ثمانية كالتي كانوا يمثلون بها تعاليم (بودا) ..

كانت مصلاقة بارتفاع خمسة رجال في قطرها ..

وكانت تتقطع مبعثرة الهول من حولها ..

وتحفز (هن ـ تشو ـ كان) لمواجهتها .. فثبت قدميه في الأرض .. وركز إرادته كي يقهر إرادة الخان .. كما فعل منذ آوان ..

العجلة تقترب .. تقترب .. ولم يحدث شيء بعد ..

يرى الآن ألسنة لهيبها وتلفحه حرارتها ويخنقه دخانها ..

لكن العجلة كانت مصممة .. قاصدة اتجاهه دون أن تدع فرصة لتفهم الخاطئ .....

وهنا أحس (هن ـ تشو ـ كان) بالخطر ..

وثب في الهواء فمرت العجلة تحت قدميه .. وشعر بنيرانها تلسع ساقيه كما لم يشعر من قبل .. وحين هبط على الغبار الأحمر البراق رآها (تفرمل) سرعتها وتدور حول محورها لترجع له معاودة الكرة .....

بدأ يشعر أن هذا الخطر من نوع جديد ..

ليس وهمًا كله .. بل ـ ربما ـ ليس وهمًا على الإطلاق ..

إن العجلة الثمانية ليست شيئًا شائعًا في الكوابيس ، وليست مما يستعمله الخان من أساليب ..

بل هي تكاد تكون حكرًا على من يعرفون تعاليم (بودا) ..

نعم .. لقد وصلت الحقيقة يا (هن ـ تشو ـ كان) ..

إن (جينغ ـ تشا) هنا !!

* * *

www.liilas.com

كيف لا ينجح أسلوب معقد كهذا ؟..

ها هي ذي آلة (الغسيل الكلوي) ـ أو (الترويق الدموي) حتى لا يتضايق الإخوة العرب ـ تهدر.. على حين تتسرب دماء (هن ـ تشو ـ كان) عبر شرايينه إلى مرشح يقوم باستخلاص ما بها من سموم ثم يعيدها إلى أوردته..

لقد مرت ساعة أو أكثر..

ولكم يا إخواني أن تراهنوا على عدد لفافات التبغ التي أشعلتها حيث جلست في الاستراحة الأنيقة أنتظر.. وأتأمل المشهد من خلال حاجز زجاجي.. وأدقن سجائري في تلك المطفأة النحاسية القائمة التي لا تستعمل المستشفيات سواها..

قال د. (منير) في سخرية وهو يلقي بجسده جواري:

ـ هل تطلب من الله ولدًا أم بنتًا؟

يعني أنني قلق كزوج ينتظر خارج غرفة الولادة.. مزاح سخيف طبعًا، لهذا هززت رأسي في اقتضاب.. وأجبت:

ـ أطلب من الله أن تصمت!..

وهنا خرجت إحدى مشرفات التمريض وبدت هي مبتسمة بوجهها الصبوح.. مما جعلني أتفاءل نوعًا.. لكنها قالت في كياسة:

ـ لم تدفع الثلاثمائة جنيه تأمين العناية المركزة!

لو أن النظرات تقتل لتحولت هذه الحمقاء إلى مصفاة تصلح لترشيح الزيوت.. أو شبكة تصلح لصيد الأسماك..

وكانوا قد أخرجوا الفتى على سرير متحرك، الفيروية كما هي، لكني أعتقد أن لونه صار أفضل (أو ربما هو خداع البصر)..، وفي عزة اقتادوه إلى فراشه حيث أعادوا تركيب الخراطيم والأنابيب..

ـ ما رأيك..

ـ لا أدري.. من الصعب الإمساك بتقدم أو تأخر حالة كهذه..

ـ كان من المفروض أن يفيق..

ـ ربما.. وربما نحن مخطئون.. لكننا لا نملك سوى إعادة المحاولة بعد يومين..

ومن يدري؟.. ربما هو في طريقه إلى الإفاقة..

وعدت لداري وكأن الإحباط هو المحلول المطهر الذي أوضح لي كم أنا متعب ومنهك.. إعياء اليوم كله طفا على سطح بركة أحاسيسي..

لهذا دخلت الفراش وجلست على طرفه فانتزعت جل ثيابي .. ثم تمددت - نصف عار - فوقه ، ولا داعي مرة أخرى أن تؤكد لي أنه لا يعلو ويهبط من تحتي .. عقلي الباطن يتناغم وينثر ثيابه فيتساقط ما بها من وجوه ..

(الكاهن الأكبر) .. (دراكيولا) .. (مبدوسا) .. (الهام) .. (عزت) .. (هويدا) .. (العماس) .. (أخيروم) .. (شاكال) .. (عادل) .. (موكاسا) .. يالها من حياة تلك التي أحياها ..!..

إنني لشخص عجيبيبب ... ، و .....

★ ★ ★

(ريقاااااات) !.. لماذا تأخرت إلى هذا الحد ؟

لم أستطع النوم أيها الكاهن الأكبر إلا الآن .. النوم لا يأتي لمجرد أنك تريده .. هل ثمة شيء جديد ؟..

أنا متلهف يا (ريقاااات) في مملكة الأشباح (زانادو) أواجه الكوابيس ، في حين تأبى أن تنام قليلاً من أجلي ؟!..

ظننت أنني سأفيدك بعدم النوم أكثر مما أفيدك بالنوم ...

خطأ يا (ريقاااات) .. قل لهم أن يكفوا عن العبث بجسدي وصب السوائل في عروقي .. فهنا لن يفيد أبدا إذا كنت تأبى النوم من أجله ..

إذن تدفئك وينتهي الأمر ؟..

تدفئني وأنا لم أمت بعد ؟.. كل ما هنالك أن وعيي رحل ..

وعيي رحل إلى مملكة الكوابيس (زانادو) .. ويوم يفز من هناك سأفتح عيني وأتكلم ..

وهل وعيك هو ما يحدثني الآن من هناك ؟..

بل هو جزء من روحي يخاطبك .. الجزء الذي يوصل ما بين جسدي ووعيي ..

لا أفهم شيئاً يا (هن - تشو - كان) .. الواقع أنهم يتحدثون كثيرًا عما يسمى بالـ (إن - دي - اي)(*) .. وفيه يصف المشرف على الموت ما يراه ويحسه لأن أجله لم يأت بعد .. لا أومن كثيرًا بهذا الكلام ، لكني أتساءل عما إذا كان ما تمر به نوعًا من هذه الخبرات ؟..

أنا لا أفقه تعبيراتكم العصرية هذه ولا أجيد ترديدها .. كل ما هناك هو أن وعيي حبيس في عالم آخر .. ويجب أن أستعيده ..

هذا جميل .. لكن كيف ؟..

أنا لا أعرف يا (ريقاااات) حتى هذه اللحظة .. لكني أوصيك خيرًا بجسدي لأنه - إن تلاشى - فقد انتهيت ، وهو ما سيحاول (جيلغ - تشا) عمله ..

بدأت الرؤيا تغوب .. تتلاشى .. تتموج كمياه بحيرة تحركها الرياح ..

(*) N. D. E. الحروف الأولى من عبارة (تجربة القرب من الموت) .

ثم ساد الظلام ..

★ ★ ★

يا لك من إنسان ممل !..

أنت لا تقدم لى شيئا مفيدا سوى الظهور لى كل ليلة مرددًا أننى ينبغى أن أعمل شيئا ما .. ثم تختفى دون إرشادات ..

★ ★ ★

ـ آلو ؟.. (رفعت) ؟

ـ أظن هذا ..

ـ لقد أنهينا التحليل .. لا يوجد سم معروف فى السائل الذى حقنناه ..

ـ ومعنى هذا ؟..

ـ معناه أن عليك الاستمرار فى تغسيل الكلوى والمحافظة على تنفس الفتى ..

ـ ومعناه أن طريقنا مسدود تمامًا ..

★ ★ ★

وهكذا ـ دون ـ قضيت أيامى فى حيرة بين مكالمات هاتفية لا طائل من ورائها .. وزيارات للمستشفى لا تجدى فتيلا ..

لقد طالت غيبوبة الفتى .. طالت ..

ويبدو أننى سأعود إلى هوايتى الأصلية : الملل ..

تدريجيًا تقل زياراتى للمستشفى .. ودوامة الحياة تجرنى معها .. ، كان ذلك حين قابلت (براكسا) فتاة المقابر .. ولقد نجحت فى أن تنسينى الأمر برمته لمدة أسبوع كامل (إن هذه قصة لا بأس بها .. تذكرونى أن أحكيها لكم المرة القادمة ، ولكن دعونا لا نشتت أنفسنا هذه المرة) ..

على أننى ـ حين عدت للمستشفى ـ كنت أملك الحل ..

وكان لذلك قصة طويلة .....

★ ★ ★

www.liilas.com

(جينغ ـ تشا) هذا !.. عرف ذلك بينما العجلة تستدير لتلحق به ..

السابعة عشرة ـ مساء اليوم الخامس من (مايو) ..

(جينغ ـ تشا) هذا !..

عرف ذلك بينما العجلة تستدير لتلحق به ..

وثب إلى أعلى فمرت من تحته ، وفي هذه المرة لم يعد ثمة شيء .. لقد اختفى معسكر (الراموس) وتلاشى المخ العملاق المسمى بـ (الأب) .. لا يدرى أين ولا متى ذهبوا ، لكنه لم يعد يرى سوى الغبار الأحمر الثائر .. والسماء التي كانت تمتلئ بالخيوط الزرقاء ..

العجلة تتوقف ثم تعود له .. وهو الآن وحيد .. وحيد ..

ومن طرف عينه استطاع أن يرى جزءًا منخفضًا من الغبار الأحمر .. جزءًا يبدو وكأنه يداري حفرة عميقة ..

هو لا يدرى طبيعة هذا العالم ولا تضاريسه .. لكنه يملك فرصة ..

وقف وخلفه الحفرة ينتظر العجلة ..

ها هي ذي تقترب .. تقترب .. تقترب ..

لن يفر الآن .. سينتظر أكثر ..

اللهب والدخان يتناثر منها ، لكنه ثابت في موضعه ..

حتى اللحظة الأخيرة .. كان هذا كافيًا .. وسرعان ما وثب في الهواء ليدور دورتين على حين اندفعت العجلة - بالقصور الذاتي - تتساقط في الجزء المنخفض من التربة مبعثرة الغبار الأحمر في كل مكان .. ومعه الشرر والدخان ..

ثم غاصت غائبة عن عينيه ..

★ ★ ★

تنفس الصعداء ووقف يرمق المشهد .. فلم يكن كل هذا رديئًا ..

حين سمع صوت الضحكة الساخرة ..

هاهاهاها !.. هذه الثيرة لا يمكن أن تخطئها أذناه ..

هاهاهاها !.. وأدار رأسه مجفلًا فوجد .. (جينغ - تشا) وقد عقد ذراعيه على صدره ووقف على بعد عشرين مترًا يرمق المشهد ويقهقه :

- هاهاها !.. إننا نمرح كثيرًا أيها (الزهرة الزرقاء) !..

(جينغ - تشا) خصمه العنيد ..

(جينغ - تشا) الذي أباد أساقفته وأسلم أسرارهم للأعداء ..

(جينغ - تشا) الذي ظل عقبة في حياته منذ دخل الدير ..

(جينغ - تشا) السبب الرئيسي وراء كل مشاكله .. وعبر الأزمان ..

(جينغ - تشا) هنا .. معه في هذا العالم الكابوسي ..

★ ★ ★

ضحك (جينغ - تشا) .. ضحك فرأى الكاهن الأخير قهقهاته تدور في الهواء وتتحول إلى وطاويط حمراء اللون ترفرف ببطء حول رأس عدوه ..

- لم تزل بارعًا يا (هن - تشو - كان) !..

تصلب الفتى .. وتقدم ببطء وحذر من (جينغ - تشا) الذي لم يغفل وقلته .. ولم يتحفز بل احتفظ بالبسمة المتهكمة الواثقة على ثغره :

- لقد تفاديت عجلة (بوذا) ببراعة .. لكن المباراة لم تنته ..

- (جينغ - تشا) !..

قالها من بين أسنانه بغل .. قالها بمقت .. قالها بحقد .. وأردف :

- كيف جئت إلى هنا وأنت ميت ؟.. أنا قتلتك !

- كدت .. لكنني استجمعت قواي وقذفتك بالقنفذ الملعون بـ (السيرجانتا) ..

وهكذا نفيتك إلى هذا العالم ..

- (جينغ - تشا) !

قالها وكأنه يبصق .. لكن المذكور أعلاه لم يعبأ .. وواصل التفاخر:

- عدت لعالمنا وزمننا واستشفيت عدة أيام في أحد الأديرة .. ثم رأيت في المنام أنك قد وجدت طريقة للعودة إلى عالم الأحياء .. لم أكن لأترك هذا يحدث .. وهنا خطر لي أن أتناول السم أنا نفسي .. لم لا ؟.. حين ألحق بك هنا سأعرف كيف أديك العذاب ألوانا وكيف أتخلص منك إلى الأبد .. ثم أنا أملك (الشوكارا) .. هي معي .. وأعرف كيف أستعملها لأعود إلى عالم الأحياء متى فرغت منك .. لما أنت فلا حيلة لك في الفرار .. أنت هنا تحت رحمتي ..

- (جينغ - تشا) !

فإنها كأنما يقيء ما بمعدته ..

- نعم .. (جينغ - تشا) .. الذي تحالف مع الخان العظيم وقوى الشر في (زانادو) لأنه (تاڤاراي) مثلك ، ويعرف ما يقي الحديد ..

- أنت لست (تاڤاراي) ولم تكنه قط ..

- ربما .. لكني أعرف كل ما يعرفه (التاڤاراي) ، وقد زادني هذا الكتاب قوة ..

وفي قتالنا القادم سيجد (الزهرة الزرقاء) أساليب لم تخطر له ببال ..

تلاقت العينان لدقائق .. رجلان يمقت بعضهما البعض منذ خمسة قرون ، وقد امتد بينهما مطار أبدي من الكراهية ..

بعد هنيهة همس الفتى متسائلا :

- لماذا سكن الحقد قلبك إلى هذا الحد ؟

- لم يسكن الحقد قلب (جينغ - تشا) لأن قلبه هو تنين الحقد ذاته .. جذوة الكراهية المقدسة ..

وارتجف صوته قليلا .. وخفق صدره وأردف :

- كنت دوما هدى .. العقبة التي تحول بيني والنجاح .. منذ الصبا كانوا يقولون لي : أحسنت يا (جينغ - تشا) ، لكن (الزهرة الزرقاء) فعلها أفضل منك .. ليتك تفقو مثله .. ليتك تقلده في كل شيء ! .. هل تذكر سر النيران الراقصة الذي حرمني من أن أكون (تاڤاراي) ؟.. الأخ (ميانج) كان يعلمك كل شيء لأن (الزهرة الزرقاء) كالأرض الخصبة التي لا تجحد جهود الفلاح) .. أتم يقال ذلك ؟.. أتم يفعل ذلك ؟

- لم يكن هذا ذنبي .. لا ذنب للزهرة في أن يفضلها الناس على الأشواك .. وليس على الأشواك أن تحقد عليها ..

- أنت لست زهرة !!

صاح في عصبية .. ثم استعاد رباطة جأشه :

- .. و (جينغ - تشا) ليس حفنة من الأشواك .. كلانا في نفس العمر .. ونال ذات التعليم، ولكنهم اختاروك أنت .. أنت .. ثم تحالفت مع (الماهاياتا) لأنتقم .. فإذا بك تفرّ بعيدًا حاملًا كل ثمار خيانتي .. لحقت بك هنا لأنتقم .. فإذا بك تقتل رجالي وتوشك على قتلي ..

ورفع عقيرته نحو السماء التي بدأ لون الدماء ينتشر فيها .. وصاح :

- لقد تضجت ثمرة الحقد في صدري، وها قطافها ..!..

غمغم (هن - تشو - كان) وهو يحاول أن يبدو متماسكًا :

- والآن .. ماذا تريد مني يا حليف الشياطين ؟

ضغط الفتى الموتور على أسنانه .. وهمس :

- إن كتاب (الشوكارا) معي هنا يا (هن - تشو - كان) - ملفوفًا حول خاصرتي .. وبدونه لا أمل لك في الفرار ..

- أعرف هذا ..

- سنخوض قتالًا مريعًا .. القتال الأخير لنا .. والمنتصر سيحصل على الكتاب ويعود إلى دنيا الأحياء، أما الخاسر فسيبقى في كيان الخان .. إن جسدك يرقد في حوزة صديقك عازف الرأس .. وجسدي يرقد في عناية رهبان (الماهاياتا) ..

وحين تنتهي مباراتنا سيلفظ أحد الجسدين أنفاسه لاحقًا بالأجداد .. في حين يفتح الجسد الآخر عينيه ويتكلم ..

- والكتاب ؟.. كيف يعود به الرابح من أرض الكوابيس ؟.. بل كيف سافرت أنت به أصلًا ؟

- إن للكتاب وجودًا معلوميًا وماديًا .. يمكنك أن تسافر به وتعلم به ..

بل هو يهوب عوالم الأحياء والأشباح بحرية مطلقة ..

- إذن يا (جينغ - تشا) ..

- إذن يا (هن - تشو - كان) ..

- فلينتصر صاحب الحق ..

- وليهلك واهن الجسد والقلب والعقل !..

.....

* * *

www.alitlas.com

الواحدة – ظهر اليوم الثامن من (شيتافو) ..

عندما تغرب الشمس ، وتلطخ سماؤها ثوب السماء الأزرق .. عندئذ يبدأ قمر (النافاراي) ..

★ ★ ★

احمرّ لون السماء إلى درجة أنها بدت كبحيرة من الدماء .. وبالفعل بدأت قطرات لزجة حمراء تتساقط منها ..

بالواقع بدا وكأن الهواء نفسه صار أحمر اللون ..

وفي الأفق ترى المحاربين الجريحين يقفان وبينهما خمسة أمتار .. وقد شرع كل منهما يتأمل الآخر في انتظار ..

ثم إن (هن – تشو – كان) فتح ساقيه وثبت قدميه على الرمال الحمراء :

– تشا سارايانا !

دوّت الصيحة فارتج الهواء بها ، وتساقطت من السماء قطع من الزجاج الأزرق المهشم .. على حين اتخذ الأفق شكل ثعبان عملاق يتثاءب ..

– تشا سارايانا !

ردّ بها (جينغ – تشا) وهو يتخذ وضعاً مماثلاً .. .

ومن جديد خلقت الوطاويط وانشقت الأرض لتخرج منها أمعاء عملاقة تتلوى محدثة قرقرة !..

فتح (هن – تشو – كان) ذراعيه إلى آخر امتداد لهما :

– جياتغ سارايانا !..

– جياتغ سارايانا !..

عشرات الأيدي المخلبية المتلصصة تشق الغبار الأحمر محاولة الوصول إلى أقدام المتحاربين ..

– كيو سارايانا !

قالها (هن – تشو – كان) وهو يميد رأسه للوراء ..

– كيو سارايانا !..

قالها (جينغ – تشا) وهو يقلد ذات الوضع ..

إنها معركة التهلية بين الخصمين .. يخوضانها في أرض الكوليس (زانادو) حيث كل شيء ممكن ..

اليوم لن يكون هناك جريح ولا فرّ ..

فقط سيكون هناك رابح وخاسر .. حيّ وميت ..

الصراع بين الخير والشر في أبسط صوره وأكثرها تسطيحاً ..

★ ★ ★

أيها السادة .. قرون الخير على يمينكم يرتدي الأبيض والشر على يساركم يرتدي الأسود ..

إن أرض الملعب لعجيبة تزرى بأية لوحة سريالية لـ (دالى) أو (شاجال).. والأغرب أنها تتبدل فى كل ثانية لتختلف تمامًا عن الثانية السابقة..

لحظة يتضح لنا أن المتحاربين واقفان فوق عنق تنين غاضب ينفث النيران.. ثم فى اللحظة التالية تجدهما واقفين وسط المستنقعات تتصاعد حولهما أبخرة غاز (الميثان) على حين تزحف التماسيح نحوهما..

الطير ـ (هن ـ تشو ـ كان) ـ يلتفت حوله فيجد وجوهًا مألوفة أثيرة إلى قلبه.. الأخ (ميانج) والكاهن الأكبر وكل عشيرة (الناقاراى) عبارة عن وجوه معلقة فى الهواء ترمقه فى موذة..

وعبر المساحات الشاسعة يرى جنود الخان على زواحفهم الشرسة، يلوحون بألسنة اللهب.. وينتظرون نتيجة المبارزة..

وهنا أدرك ـ دون جهد ـ أن وجوه (الناقاراى) التى يراها ليست سوى فرسان (الراموس) وقد انعكست عليهم صور من نفسيته..

وتكلم الكاهن الأعظم.. تكلم بذلك الصوت الثرج.. صوت المخ (الأب) قائد الثوار.. قال:

ـ اضرب أيها المحارب.. إن هذا الرجل هو الخان.. هو الشر بعينه ولئن قتلته لقدرت حرًا!..

وقال الأخ (ميانج) بأسلوبه الرصين:

ـ لتكن لك خفة النمر وشراسة ذئب الثلوج..

وفى اللحظة التالية انطلق (هن ـ تشو ـ كان) كالسهم نحو هدفه..

★ ★ ★

لبضع ثوان لم يحدث شىء..

لقد ظل الخير والشر يتحاوران.. يدوران حول بعضهما..

كان كلاهما أستاذًا فى التقادى. وبدا الأمر كأن سمكتين صغيرتين تتملصان من يد عملاقة دست نفسها فى بحيرتهما..

مئات الركلات يوجهها (هن ـ تشو ـ كان) تتصادم فى الهواء، لكن (جينغ ـ تشا) يثب ويتحنى ويتفاداها..

يوجه ـ بدوره ـ مئات اللكمات التى يتملص منها (هن ـ تشو ـ كان)..

ولكن ـ حين حدث الصدام الأول ـ التمعت السماء بضوء البرق.. ودوى هزيم الرعد.. ثم بدأ مطر من الجليد القرمزى فوق الرجلين..

لقد أصابت لكمة (جينغ ـ تشا) عنق خصمه فى نقطة (شورا) حساسة..

وفى السماء تفجر وجه الأفق (ميانج) ليتطاير منه سرب من النحل ..

لكن الركلة عطلت توازن (جينغ ـ تشا) الفائق .. مما مكن (هن ـ تشو ـ كان) من ضربه برأسه فى صدره ليسقط (جينغ ـ تشا) فوق الرمال ..

وتدلت ركلات (هن ـ تشو ـ كان) الرشيقة السريعة بمشط قدميه (اليمنى فاليسرى على التوالى) حتى تفجر الدم من فم (جينغ ـ تشا) ..

وبيطء أدار رأسه ثم سقط ميتا !..

صاح (هن ـ تشو ـ كان) فى هستيريا :

ـ سوان عاتشاه سارايانا !

ووثب نحو الجثة ليتفحصها .. حين سمع الضحكة .. قادمة من أعلى ـ الضحكة ـ لم يكن من الممكن ألا تكون لغيره .. (جينغ ـ تشا) !.. حقا !.. هو كذا .. ولكن كيف ؟.. إنه جثة ملقاة على الأرض ..

هو ذا (جينغ ـ تشا) واقفا على قمة الجبل يرمق المشهد فى ثقة وسطرية ، مستمتعا بكل هذا :

ـ أنت بارع يا (هن ـ تشو ـ كان) .. لكنك كنت تقاتل سرابا صنعه لك لخان العظيم !.. لم يكن ثمة ما يدعو لإضاعة جهدك بينما أنا هنا طيلة الوقت !

ووثب نحو الجثة ليتفحصها .. حين سمع الضحكة .. قادمة من أعلى

الضحكة ـ لم يكن من الممكن ألا تكون لغيره ..

ورفع إصبعه أمام عينى (هن ـ تشو ـ كان) الذاهلتين..

ـ يسمونه أسلوب (المرآة).. ويهدف إلى استنزاف قدرات الخصم فى معارك وهمية مع أطياف.. إنه مأخوذ من (الشوكارا)..

ـ من المؤسف أننى لم أجد وقتا لدراسة (الشوكارا)..

كنت دائما مشغول البال بحسابها وإخطائها..

ـ أما (جينغ ـ تشا) فيحفظ كل حرف فيها..

وفى اللحظة التالية وثب خمسة من (جينغ ـ تشا) على (هن ـ تشو ـ كان)!

كلهم متماثلون.. كلهم حالقون.. كلهم سريعو الحركة كالبرق..

ـ هذا تطبيق أوسع لأسلوب (المرآة) أيها الكاهن الأخير.. من منهم هو أنا ؟!..

بالتأكيد (جينغ ـ تشا) هو الواقف على الجبل..

ولكن.. لماذا بالتأكيد ؟.. ربما هى صورة خادعة بينما (جينغ ـ تشا) الحقيقى هو.....

كانوا يتحركون برشاقة جميعا.. وحركاتهم متناسقة كرقصة مدروسة.. الثلاثة يتراجعون بينما يهاجمه ثلاثة.. ثم يتراجع الثلاثة وينقض ثلاثة.. ثم يختفى واحد ليظهر وراءه ظهر (هن ـ تشو ـ كان) فى الثانية الثالثة..

كان يقاتلنى كل هؤلاء.. لكننى لم يعرف قط أين يوجه ضرباته..

★ ★ ★

أنت فى (زانادو) أيها المحارب.. فلا تثق بعينيك.. ثق بعقلك.. ثق بغريزتك..

★ ★ ★

يا له من مأزق !

كل ضرباتك بلا جدوى فلا ترتطم سوى بوهم..، وأنت لا تجرؤ على الوقوف ساكنا وانتظار هجومه لأن أحدهم قد يكون هو.....

المشكلة أن الغبار الأحمر يتبعثر تحت أقدامهم جميعا.. وكلهم يتركون ظلا..

فما هو الحل إذن ؟..

ثق بغريزتك.. ثق بغريزتك..

غريزتك تقول إن كل هؤلاء أشباح.. ليس خصمك واحدا منهم..

إذن توقف..

دعهم يهاجموك..

وانتظر النتيجة..

★ ★ ★

الثامنة – صباح اليوم الثالث عشر من مايو ..

كنت منهكًا بعد عناء مغامرتي مع (براكسا) ..

وكنت ملقى – كالوسادة – فوق فراشي حين دوى جرس الهاتف ، فهرعت متزنحا لأرد وأنا أشعر كأني لم أفق بعد من عالم الحلم ..

– مريضك الإسبوعي ..

– هل مات أخيرًا لحسن حظي ؟

– كلا .. هو يتثاءب كالدودة ويبدو محاولا تمزيق الخراطوم ، وقد اضطررنا إلى ربطه في الفراش ..

– وهل اتهمتني بأنني السبب ؟

– بل ظننت أن الأمر يهمك ..

– إنه يهملني .. شكرًا لك ..

– أ .. بالمناسبة .. مشرفة التمريض تذكرك بتأمين العناية المركزة !

..... كليك ! .....

ما الذي يحدث للقني ؟.. لقد كف عن الاتصال بي في المنام منذ أسبوع تقريبًا .. ولا أدري ما دهاه .. ولا أعلم أي تقدم حققه ..

كانت جثة القط بعد في موضعها في العلبة الورقية ، وكنت أعلم أن المسكين سيموت جوعًا حتى إن لم تقتله الفيروية ، لهذا كنت أقدم له وجبات منتظمة من اللبن عبر محقن وأنبوب بلاستيكي صغير أدخلته من فمه إلى أمعائه ..

هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدتها لأغذيه بانتظام لأن أعطيه سوائل وريدية ..

كان حيًا .. حيًا كأفضل ما يكون .....

لكن جثته بدأت ترتجف وكأن الكهرباء تسري فيها .. ترتجف .. ترتجف ..

تراجعت للوراء وقد أدركت أن شيئًا ما ليس على ما يرام ..

شيئًا شريرًا يحدث بالتأكيد ..

★ ★ ★

الثالثة ـ فجر اليوم السادس من (فوردام) ..

كان خصمه صامتًا ..

لم تؤثر فيه ضربات أى من المحاربين الخمسة .. ، وبدأ يفهم أنهم جميعًا أطراف وهمية .. أما آثارهم على الرمال وظلالهم فجزء من الوهم ..

وهكذا سار بينهم فى تؤدة يتلقى ركلة هذا ولكمة ذاك دون تأثير يُذكر ..

سوى ـ بالطبع ـ بعض الاضطراب الغريزى الذى يحاول دفعه للاختباء ..

ولكن .. أين (جينغ ـ تشا) الحقيقى ؟

★ ★ ★

أسلوب الحرباء :

ابتدعه المعلم العظيم (شو ـ هان ـ كه) فى عام الثنين المائة .. وبه يستطيع محارب (التاتارى) أن يسمح للنور بالمرور من أعضائه .. ويخدو شفافًا لا يراه العدو .. يحتاج لساعات طوال من التأمل ..

تتلقى (هن ـ تشو ـ كان) الضربة على ضلوعه فأنّ وسقط أرضًا ..

لم يحتج لكثير جهد كى يعرف أنها حيلة جديدة من (جينغ ـ تشا) تجعله غير مرئى ..

إن كتاب (الشوكار ا) لخطير بحق !.. كل هذه الأساليب الجهنمية فى يدى شيطان مثل (جينغ ـ تشا) .. الويل ا..

شرع ينقلب فى الرمال الحمراء بحركات عشوائية محاولًا تفادى ضربات لا يراها .. ثم نهض .. وأخذ يدور حول نفسه فى توتر ..

انهالت الصفعة على القفاء ، فاستدار ليوجه ركلة إلى مأحصبه مصدرها ..

وطبعًا لم يكن هناك سوى الفراغ ..

ظلت تعاوده كرامته .. وفار بركان غضبه ..

وفى اللحظة التالية رفع قبضتيه إلى جانبيه وقدمه اليسرى إلى خاصرته ..

ثم دار بسرعة البرق حول نفسه عدة دورات ، وبنفس السرعة مسح الاتجاهات الأربع .. حتى .....

اصطدمت قدمه ـ فى رقصة الدالية الدموية هذه ـ بشىء طرى أفزعه أنه أسفل بطن خصمه الخفى .. وسمع الصرخة الدامية ..

اختفت السماء .. وتحولت إلى كتلة من الديدان المتلوية فى عين برزت عين عملاقة محملقة من التربة

الصحراء .. وعلى الأرض تمدد (جينغ ـ تشا) بعد ما صار مرئيًا وقد أفقده الألم قدرته على التركيز ..

هتف (هن ـ تشو ـ كان) في انتصار، وهو يلهث:

ـ يسمونه أسلوب (المحراث) يا (جينغ ـ تشا) .. ويصلح لصنع عشرة رجال من مهاجمتك إذا كنت ضريرًا .. أحسبك تكاد لا تعرفه؟

تلوى الفتى كالثعبان حول نفسه .. ثم هتف:

ـ وآآآه !.. لا أعرفه .. وآآآه !.. لقد كنت سريعًا كفهد جريح ..

ـ (التافارای) يرث سرعة البرق من أمه الطبيعة ..

ـ لكني سأدبرك أيها الزهرة الزرقاء !..

★ ★ ★

أسلوب (الزلزال):

ابتدعه المعلم الحكيم المقدس (شاشكين ـ كو) في عام الكفاية العاشر ..

وبه يستطيع محارب (التافارای) أن يذهل خصمه ويزلزل حواسه بمجرد إطلاق صرخة وحشية عالية ..

وصرخ (جينغ ـ تشا) .. صرخ كأفضل ما يكون ..

اهتزت السماء الحمراء وتكسر جزء منها كاشفًا عن ثغرة تتسرب منها مياه البحر الزرقاء إلى هذا العالم ..

كانت صرخة عاتية مريرة طويلة ممزقة مزلزلة محطمة ..

وأحس (هن ـ تشو ـ كان) أنه يغوص في الأرض .. وأن يديه تزنان أطنانًا .. لكنه لن يغيب عن الوعي .. حتمًا لن يغيب عن الوعي ..

يحتاج (جينغ ـ تشا) لأساليب أكثر من هذه كي يقهره ..

★ ★ ★

أسلوب (البلدوزر):

ابتكره الأستاذ (تشي ـ وا ـ صن) في عام الثلث العاشر بعد المائة .. وبه يستطيع محارب (التافارای) أن يصيب خصمه بالدوار عن طريق الحركة الرحوية السريعة مع الاهتزاز صعودًا وهبوطًا ..

أخذ (جينغ ـ تشا) يمارس هذا الأسلوب مع خصمه .. ولم يستطع التاهن الأخير أن يصدق كل هذه البراعة وسرعة الحركة ..

دار رأسه ومعه دار العالم .. وتحول الأفق إلى بئر عميقة .. حاول أن يغمض عينيه، لكنه ظل مشدودًا مسحورًا إلى المشهد .. مشهد الدوامة التي تنثر منه وتنأى .. تروح وتجيء .. كلا !.. لا تستسلم !.. أرجوك ..

وأخيرًا استجمع قواه واندفع صارخًا إلى مكان فارغ جوار الدوامة ..

ووجه أعنف ركلة وجهها فى حياته .. وبعد ربع ثانية طار (جينغ ـ تشا) فى الهواء الأحمر ليسقط على الرمال متلويًا .. وسقط (هن ـ تشو ـ كان) إلى جواره .. وسمع صوت (جينغ ـ تشا) المتحشرج يتساءل :

ـ كيف فعلتها ؟

ـ الصياد لا يطلق سهامه على موضع الطائر المحلق .. بل على الموضع الذى يقدر أن الطائر سيكون فيه حين تصله السهام !

ولكن .. لماذا يضيع فرصته ؟.. لماذا يثرثر ؟..

ها هى ذى فرصته سانحة .....

★ ★ ★

تغلى حمم البراكين .. تشتعل الأشجار فى غابات (التايجا) .. ينفجر النجم الأحمر .. تلفح الأفعى .. يزأر النمر ويقفز .. يتهشم الجبل .. معًا .. حين يكوّر الكاهن الأخير قبضته ، ويهرع نحو خصمه الساقط على الأرض لينهى قتالا طال ..

يا أرواح الأجداد المقدسة استرقى النظر .. وأصغى .....

يا كل محاربى (النافارای) .. تعالوا لتروا .....

حين تصل هذه القبضة إلى هدفها سيكون (جينغ ـ تشا) كتلة من العظام المهشمة .. وستروى رمالها (زاتانو) الحمراء ..

وعلى طريقة (النافارای) برز الإصبع الوسط والإبهام من القبضة لتحاكى رأس الكبش البرى ، فيكون تدميرها قاتلا ..

ليس من شيم (النافارای) مهاجمة خصم راقد على الأرض .. لكن الرأفة حمق إذا تعلق الأمر بالأفاعى .. و (جينغ ـ تشا) أفعى ..

★ ★ ★

الضربة عنيفة .. عنيفة ..

تناثرت أشلاء جنود الخان فى الفضاء .. وانفجرت العين الجاحظة من الأرض .. واشتعل الأفق بالنيران ..

وعلى الأرض سقط (جينغ ـ تشا) غارقًا فى العرق والدم ..

هرع (هن ـ تشو ـ كان) إليه كى يلتقط ثيابه بحثًا عن كتاب (الشوكارا) ..

انحنى جواره راكعًا على التراب الأحمر وشرع يبحث .. لابد أنه موجود معه .. لا يمكن لمحارب (نافارای) ـ أو

من يعرف أسرارهم - أن يتنقل دون أن يحمل الكتاب معه .. لابد أن .....

- والآن ... أيها (الزهرة .....) ..

كان هذا هو (جينغ - تشا) الذى استجمع قواه .. فجلس على حين غرة وقد أبرض بأنامله على حنجرة (هن - تشو - كان) قبضة مخلبية لا فكاك منها تكاد تنتزع الحنجرة انتزاعا . وشعر الكاهن الأخير بسافى خصمه تلتفان حوله لتثبتاه فى موضعه ..

طوح بذراعيه يمينا ويسارا محاولا عمل شىء ما ..

لكن الفتى كان صنيتا برغم كل شىء .. وكان بعيدا عن مجال الضربات ..

- غاااااه !

- هذه .. هى ... لـ .. لعينتى الأخيرة ... مرة .. إن حـ .. حنجرتك لى !

قالها وهو يواصل الضغط بأصابع لا تقهر على حنجرة (هن - تشو - كان) ..

وعلى وجهه ابتسامة صفراء قاسية .. كان يتزف .. ويلهث .. لكن الحقد كان يحرك يقاياه كما تظل العربة مندفعة بعد موت الحصان الذى يجرها ..

- غاااااه !.. غاااااه !

★ ★ ★

العاشرة - صباح اليوم الثالث عشر من مايو ..

- غاااااه !.. غاااااه !

ماذا دهاه ؟.. أفعلوا شيئا !.. لربما انسدت أنبوب القصبة الهوائية .. أو حدث عطل فى جهاز التنفس .. لا تقفوا هكذا كشواهد القبور ..

هرع د . (منير) يتفحص الأجهزة والوصلات .. ثم هز رأسه لا مشكلة هنالك .. لا يوجد تفسير لكل هذا ..

- إذن فهذا كابوس ؟

- حتما ..

- لكن الكابوس لا يسبب إرهاقا الشقتين ..

هز د . (منير) رأسه فى سأم .. وغمغم :

- إن كل ما يحدث غريب وغير معقول . ولا يمت للطب بصلة .. لكن أدهش إذا ما طار هذا الفتى أو بدأ يتهيأ كالحمير ..

ثم نظر إلى الطبيبين الجالسين جواره .. وتساءل وهو يتهيأ ..

- هل كل شىء معد لجلسة التحليل الكلوى ؟

- كل شىء ..

- إذن هيا بنا .. ولنأمل ألا تحدث كارثة ما .. إنها المرة الثالثة ويعلم الله وحده ما قد تجلب علينا ..

★ ★ ★

من يعرف أسرارهم - أن يتنقل دون أن يحمل الكتاب معه .. لابد أن .....

- والآن ... أيها (الزهرة .....) ..

كان هذا هو (جينغ - تشا) الذى استجمع قواه .. فجلس على حين غرة وقد أبرض بأنامله على حنجرة (هن - تشو - كان) قبضة مخلبية لا فكاك منها تكاد تنتزع الحنجرة انتزاعا . وشعر الكاهن الأخير بسافى خصمه تلتفان حوله لتثبتاه فى موضعه ..

طوح بذراعيه يمينا ويسارا محاولا عمل شىء ما ..

لكن الفتى كان صنيتا برغم كل شىء .. وكان بعيدا عن مجال الضربات ..

- غاااااه !

- هذه .. هى ... لـ .. لعينتى الأخيرة ... مرة .. إن حـ .. حنجرتك لى !

قالها وهو يواصل الضغط بأصابع لا تقهر على حنجرة (هن - تشو - كان) ..

وعلى وجهه ابتسامة صفراء قاسية .. كان يتزف .. ويلهث .. لكن الحقد كان يحرك يقاياه كما تظل العربة مندفعة بعد موت الحصان الذى يجرها ..

- غاااااه !.. غاااااه !

★ ★ ★

العاشرة - صباح اليوم الثالث عشر من مايو ..

- غاااااه !.. غاااااه !

ماذا دهاه ؟.. أفعلوا شيئا !.. لربما انسدت أنبوب القصبة الهوائية .. أو حدث عطل فى جهاز التنفس .. لا تقفوا هكذا كشواهد القبور ..

هرع د . (منير) يتفحص الأجهزة والوصلات .. ثم هز رأسه لا مشكلة هنالك .. لا يوجد تفسير لكل هذا ..

- إذن فهذا كابوس ؟

- حتما ..

- لكن الكابوس لا يسبب إرهاقا الشقتين ..

هز د . (منير) رأسه فى سأم .. وغمغم :

- إن كل ما يحدث غريب وغير معقول . ولا يمت للطب بصلة .. لكن أدهش إذا ما طار هذا الفتى أو بدأ يتهيأ كالحمير ..

ثم نظر إلى الطبيبين الجالسين جواره .. وتساءل وهو يتهيأ ..

- هل كل شىء معد لجلسة التحليل الكلوى ؟

- كل شىء ..

- إذن هيا بنا .. ولنأمل ألا تحدث كارثة ما .. إنها المرة الثالثة ويعلم الله وحده ما قد تجلب علينا ..

★ ★ ★

تلفت حوله فوجد فرسان (الراموس) والمخ (الأب) واقفين .. وسمع (الأب) يقول بصوته المتحشرج اللزج :

- أحسنت أيها المحارب .. قهرت أعتى جنود الخان .. الجندى الذى لم يكن قط وهمًا وكان يملك أن يغير كل شىء !..

- وهذا النمر المفترس .. إنه ليس وهمًا .. لكن من أين جاء ؟

سمع صوت المشرحة المريع فأدرك أن (الأب) يضحك :

- هاااااك !.. هاااك !.. أنت فى (زادو) أيها المحارب حيث لا تصدق كل ما تراه .. هذا النمر - الذى أراه أنا عملاقًا ضخمة - ليس سوى أخيك القط الذى لحق بك من عالمك ...!..

- مستحيل !.. لقد تهته قليلا طويلا .. ولكن كيف استطاع أن يقتل (جينغ - تشا) ؟

- أنت لا تدرى كيف رآه .. ربما رآه تنينًا أو غولا عملاقًا ..

- ولكن كيف يقتله ؟

- أنت فى (زادو) أيها المحارب حيث تسيل الأوهام الدماء كما تسيلها الحقائق !

★ ★ ★

مرة أخرى تعاود الأجهزة هديرها محاولة تنظيف دم القتلى ..

وكنت أنا أدخن كدبابة من مخلفات الحرب العالمية .. ، وأجلس إلى جوار د . (منير) نتأمل المشهد ..

وإلى جانبى العلبة الورقية حيث يواصل القط سياته الفتك العلنى بالكوابيس .. لم تعد هذه العلبة لتطارد قتلى بعد اليوم ..

ونظرت إلى ساعتى .. العاشرة والنصف .. لا أدرى ما سرّ اللهفة التى تنتابنى وكأنى بحاجة إلى اللحاق بموعد تسيته تمامًا ..

غريب هذا !...

★ ★ ★

أخيرًا .. عاد اللون الأسود المحبب للسماء وعاد العنكبوت للعلاق يشمع خيوطه .. وعلى الرمال الحمراء وقف (هن ـ تشو ـ كان) وسط قرمان (الراموس) يمسك بيده القط الصغير الذى لم يعد يراه سوى قط صغير ..

ـ والآن ابدأ التجربة ..

قالها المخ العملاق .. وكان (جينغ ـ تشا) قد تحول إلى كتلة من العذاب الزرقاء عند قمى المعارب الأخير

فى حذر رفع (هن ـ تشو ـ كان) الفارورة .. وفتحها .. ، ومد إصبعه الإبهام فى فم القط متجاهلا أنيابه .. وسكب السائل فيه .. قطرات معدودة ..

كان لابد أن يجرب ..

فمن أدراه ـ برغم كل شىء ـ أن هذه ليست حيلة أخيرة من (جينغ ـ تشا) ؟..

ولثوان طفق ينتظر .....

بدأ القط يتلاشى .. جسده يبهت بالتدريج .. فجأة لم يعد هناك ..

وأدرك (هن ـ تشو ـ كان) أن الترياق ناجع ..

لقد عاد وعى القط إلى عالم الأحياء .....

★ ★ ★

غريب هذا !.. لقد فتح القط عينيه !..

إن هذا مذهل .. إنه ينهض .. يثب من الصندوق .. يمط أقدامه ويكور ظهره ويتثاءب بعنف كأنما يحاول انتزاع لسانه من مكانه !..

أصابنى البكم أنا و د . (منير) وشرعنا نرمق المشهد فى بلاهة ..

ـ من أتى بهذا القط ها هنا ؟

دوى صوت مشرفة التمريض بأعلى وقد هالها أن ترى قطا فى العناية المركزة التى تديرها ، صرخت فى هستيريا وولولت .. ثم إنها صاحت ما إن رأتنى :

ـ إنه ملكك ، أليس كذلك ؟.. تمتنع عن منع تلسين العناية المركزة لمدة أسبوع ثم تتسلى بإحضار القطط الضالة معك ؟.. إن هذا لا يطاااااااااق !.. هى ى ى ى !

وانفجرت فى البكاء الهستيرى .. وتهالكت فوق مقعد جلدى تنعى طالعها ..

أما أنا فانتشلت شارد الذهن عن كل هذا .....

كنت فى (زانادو) .....

★ ★ ★

غريب هنا ! لقد فتح الفخ غريب !.. إلا هنا ساحل .. إنه يهبط ..

إنه من الصندوق ..

حانت لحظة الحقيقة ..

فرصمت يرفع (هن ـ تشو ـ كان) الفنينة إلى فيه ..

وبحذر يجرع الجرعات الأولى من السائل ..

كان عطر المذاق حادًا قليلًا .. وأحس بدوار خفيف ، لكنه تجاهله وفرغ من باقي الجرعات .. ورفع عينيه ليرى الغرباء من حوله ..

لقد لمست .. لا شيء سوى صوت نهاته .....

الكتاب في يده اليسرى والفنينة في اليمنى .. وآلام الترقب ..... ثم .....

★ ★ ★

وحين فتح عينيه ..

وحين ارتجفت شفتاه .. وحين تحرك رأسه وامتدت يداه ..

وحين هرعت ملهوفة إلى الحجرة لانتزع أنبوب القصبة الهوائية ..

وحين فرغ من سعاله ودموعه .. وجلس في الفراش يرتجف ..

عندئذ أدركت أن (هن ـ تشو ـ كان) قد عاد إلى عالمنا ..

انتصر المحارب الأخير على الغيبوبة .. وعالم الأوهام ..

كان في يده كتاب (الشوكارا) .. لا أدري متى ولا كيف قبض عليه ..

وفي اليد الأخرى قنينة صغيرة خاوية ..

أما أول ما قاله فكان بلغته التي لا أعرفها .. لكنني فهمته لأنه لا محل لكلمة أخرى تقال في هذا الموقف ..

ـ أين أنا ..... ؟

.....

* * *

خاتمة ..

انتهت أسطورة (الناظر اى) !..

انتهت قصة المحارب الذى عبر خمسة قرون وآلاف الأميال كي يجيء إلى عالمنا .. وعبر حاجز الواقع كي يصل إلى أرض الكوابيس ..

حقًا لا أعرف الحقيقة ..

هل (زالادو) و (الأب) و (الرامبوس) وصراعه مع خصمه .. هل حدث كل هذا حقًا أم هي مجرد هلوسة التائهة في غيبوبتها وحكاها لي ؟

هل ما أعادها لطبيعتها قنينة الترياق أم الخيال الكتوى الذى أجريناه ؟

لكن عندي دليلين هامين على صدقه ..

الدليل الأول : هو اقتحامه للقط في القصة .. وهو لا يعرف أن هناك قطًا ..

الدليل الثاني : أنني وجدت الكتاب في يده حين أفاق ..

لقد كان (هن ـ تشو ـ كان) في عالم مواز غريب يمكن أن يحدث فيه كل شيء وأي شيء ..

لكنه أثبت أنه الأفضل كالعادة .. والأكثر براعة وتوفيقًا ..

والأهم أنه لم يعد يخشى أحدًا في عالمنا الذي صار آمنًا تمامًا ..

إنني سعيد بهذه النتيجة لأنني ـ أعترف ـ وقعت في هوى هذا الفتى الشريف النبيل كأبطال الأساطير الإغريقية .. ، وقعت في هواه برغم ثائرة المستشفى التي دفعتها بانفعال وتسببت في خراب بيتي .. ففي لحظة الدفع لا تجد واحدًا من أية سفارة آسيوية يعرض خدماته الثقافية !..

وبعد فترة نقاهة لا بأس بها ، عاد (هن ـ تشو ـ كان) للإقامة معي في داري .. ، وكان أن قابل الملحق الثقافي الصيني معي وأفهمه أنه من مواطني (التبت) .. وأنه تربى في (مصر) ويريد أن يعمل في سفارة (الصين الشعبية) .. وأنه ـ بالطبع ـ لا يملك أوراقًا تؤيد كلامه !

وقد كان ..

وأنتم تتذكرون دون شك أن الفتى كان يعمل مترجمًا في تلك السفارة ، لأن عربيته لم تكن سيئة على الإطلاق في تلك الآونة ..

ووجدت له مسكنًا لا بأس به ، ونجحت في جعله يذوب وسط مواطنيه الذين لا يتخيل أحدهم أي سرّ يطويه الفتى تحت ثيابه العصرية الأنيقة وأدبه الجمّ ..

لا أنصح أحدكم باستفزازه .. فهو مسالم جدًا ، لكنك لا تدري متى يقرر أن يستخدم أسلوب (الساريانا) .. عندئذ ألت الملوم ولا أحد غيرك ..

بعد ذلك بفترة كانت له مغامرة لا بأس بها مع وحش وطنه رجل الثلوج (ألمي ـ جي) .. تذكرونني أن أحكيها لكم يومًا ما .. مانا تقولون ؟..

حكيتها في الكتيب الثاني عشر ؟! .. معذرة !.. يبدو أن تعقب الشرايين قد نال من ذاكرتي بالفعل ..

على كل حال لم تنته ذكرياتي مع (هن ـ تشو ـ كان) ، وسأحكي لكم المزيد إذا راقت لكم حكاياته ..

والآن نعود للحديث عن الأحداث الكابوسية التي عشتها في ذلك الأسبوع الذي سبق عودة (هن ـ تشو ـ كان) لعالمنا .. الأحداث التي كادت تنسيني كل شيء عن الفتى ، بل وكادت تودي بحياتي في الواقع ..

إن الحديث عن المقابر محبب للنفس .. نفس الأشباح على الأقل ..

وقد كانت (براكسا) تحب الحديث عن المقابر .. وكنت أنا .....

ولكن .. معذرة ..

إن هذه قصة أخرى ..

د . رفعت إسماعيل

القـاهرة

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

www.liilas.com

WWW.BIBLALEX.COM

مجلة
ممدوح الليثي

وراء الطبيعة

مجلة ثقافية تصدر الأنفاس

د. محمد خالد توفيق

أسطورة الناظر اى

لانريد ضوضاء ..
لانريد صخبا . لانريد
صرخات هلع ولاهتافات
استحسان.. إن الكاهن الاخير يخوض
اخر معاركه . ويحتاج الى اكبر قدر من
التركيز . خذوا مقاعدكم بإسادة
وانكمشوا فيها .. لان هزيمة الكاهن
الاخير تعني نهايتنا نحن ..
لانريد صغيرا .. لانريد سوى
الصمت البليغ ..

العدد القادم : أسطورة حسناء المقبرة

الثمن في مصر ١٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة